فتح الرحمن

بأوصاف وأسماء لا إله إلا الله في القرآن



تأليف
زيد بن فالح الربع الشمري

مكتبة دار البيان

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فاعلم رحمك الله تعالى أن « **لا إله إلا الله** » هي الكلمة العالية والشريفة الغالية ، من استمسك بها فقد سلم ، ومن اعتصم بها فقد عُصم ، قال رسول الله : « **مَنْ قَالَ لا إلهَ إلا الله ، وكَفرَ بِمَا يُعبَدُ مَنْ دُونِ الله ، حَرُمَ مَالُهُ ، ودَمُهُ ، وحِسَابُهُ عَلَى الله عزَّ وجلَّ** » رواه مسلم[(١)] .

وهي أعظم الكلمات وأبركها ، وهي كلمة كريمة على الله ، ولا فلاح للخلق في الدُّنيا والآخرة إلا بها ، وإذا عَظُمَ شأن أمر كثرت أسماؤه وتعدَّدت أوصافه ، ولا يوجد في الوجود كلمة أعظم شأنًا وأكبر قدرًا من « **لا إله إلا الله** » فهي أعظم الكلمات على الإطلاق ، فقد تضمنت التوحيد الذي هو حق الله الأعظم على عباده ، وقد ورد ذكرها في القرآن قرابة (٣٦) مرة ، وهذان موضعان ذكرت فيهما بلفظها التام « لا إله إلا الله » في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ**

(١) مسلم (٣٧) (٢٣) ، من حديث طارق بن أشيم الأشجعي رضي الله عنه .

﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : ٣٥] .

وقال سفيان بن عيينه : « ما أنعم الله على عبد من العباد نعمةً أعظم من أن عرَّفهم لا إله إلا الله »(١) .

ومن علوم « لا إله إلا الله » العظيمة والمباركة : أسماؤها الشريفة التي سمَّاها بها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ، فيسر الله سبحانه وتعالى لي تتبعها وجمع ما وقفت عليه منها واشترطت في جمعها : أن يكون الاسم الذي اختاره صريحًا في القرآن ، فأذكر الاسم والدليل عليه من القرآن الكريم ، مع ذكر من سمَّاه بهذا الاسم من السلف من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أو التابعين ، أو أحد أئمة التفسير المعتبرين ، مع تفسير الآية التي ورد فيها الاسم وبيان ما اشتملت عليه من مسائل عقدية ، لاسيما ما تعلَّق منها بهدايات الاسم المذكور ، مع ذكر ما تضمنه الاسم من هدايات إيمانية وتربوية ولفتات سلوكية مستمدًا ذلك من التفاسير السلفية المعتبرة : « جامع البيان » للطبري ، و « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير ، و « معالم التنزيل » للبغوي ، و « تفسير ابن أبي حاتم » ، و « الدر المنثور » للسيوطي ، و « تفسير السعدي » وغيرها .

وقد قمت باختيار ماهو أقرب للوصف والاسم لهذه الكلمة العظيمة ، واقتصرت من ذلك على ما في القرآن ودليله واضح ، ونصَّ عليه أحد السلف من الصحابة والتابعين أو أئمة التفسير المعتبرين ، وتركت ما هو أقرب ما يكون فضلاً من فضائل

(١) ابن أبي الدنيا في كتاب « الشكر » (٩٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤١٨١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٧٢) .

« **لا إله إلا الله** » وليس وصفًا أو اسمًا لهذه الكلمة العظيمة ، أما الفضائل فهي كثيرة جدًا مبثوثة في الكتاب والسنَّة ، وفي كتب العقائد .

واجتنبت أيضًا تسميتها بأسماء عظيمة معلومة من المصطلحات العقدية التي تدخل فيها « **لا إله إلا الله** » ، وعقيدة التوحيد دخولاً أوليًّا ، كالإسلام والإيمان والتوحيد والعبادة ، فهذه معروفةٌ ومشهورة ، وهي معالم الدِّين الإسلامي الكبرى ، ومعانيها داخلةٌ في هذه الأسماء والأوصاف التي جمعتها ، واجتنت ذكر بعض الأوصاف والأسماء الأخرى لـ « **لا إله الا الله** » ، وإن كان معناها صحيحًا وينطبق على « لا إله إلا الله » ؛ لأنه لايوجد من السلف وأئمة التفسير من وصف « **لا إله إلا الله** » بها أو سمَّاها بها ، أو لأن ذلك الوصف أو الاسم مأخوذ من السنَّة النبوية ، وقد اقتصرت على جمع أسماءها وأوصافها من القرآن الكريم .

وقد يسر الله تعالى بمنه وكرمه وواسع فضله جمع (٣٣) اسمًا كريمًا لهذه الكلمة العظيمة المباركة ، وقد قدَّمت لهذا الكتاب بمقدمات مختصرة ذكرت فيها معنى « لا إله إلا الله » وأركانها وشروطها وشيء من فضائلها ، وسميته « **فتح الرحمن بأوصاف وأسماء لا إله إلا الله في القرآن** » .

أسأل الله تعالى الذي أنعم علينا بـ « لا إله إلا الله » وأتوسل إليه بـ « لا إله إلا الله » أن يتقبل هذا العمل الذي هو محض فضله ولطفه ، وأن يحيينا وإياكم على « لا إله إلا الله » ، وتعظيمها والعمل بمقتضاها وأداء حقوقها ، وأن يميتنا عليها ويجزينا بها رضوانه وجنته ، وأن يكون لنا وليًّا وبنا حفيًّا ، وأن يسعدنا في الآخرة والأولى ، ويجعلنا من المفلحين في الدارين ، وأن يجيب لنا بها الدعوات ويفرج الكربات ، ويحقق الأمنيات ، ويجمعنا في روضات الجنات .

اللهم كن لنا بـ « لا إله إلا الله » وليًّا ونصيرًا ومعينًا وظهيرًا وكفيلًا وحسيبًا وحفيظًا ووكيلًا ، ووالدينا وذرياتنا وأزواجنا وقراباتنا والمسلمين والمسلمات .

زيد بن فالح الربع

واتسب ٠٥٤٢١٢٥١٧٤

معنى « لا إله إلا الله »

الركن الأول من أركان الإسلام هو الشهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمداً رسول الله .

قال رسول الله ﷺ : « **بُنِيَ الإسْلامُ علَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ ، وإقَامِ الصَّلاةِ ، وإيتَاءِ الزَّكَاةِ ، والحَجِّ ، وصَوْمِ رَمَضَان** »[(١)] رواه البخاري ومسلم .

ومِن أوصاف شَهادةِ لا إلهَ إلَّا اللهُ : أنَّها أعلى شُعَبِ الإيمانِ ، عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال : قال رَسولُ اللهِ ﷺ : « **الإيمانُ بِضعٌ وسَبعونَ ـ أو بِضعٌ وسِتُّونَ ـ شُعبةً ، فأفضَلُها قَولُ لا إلهَ إلا اللهُ** ـ وفي لفظ : ـ **فأعلاها قول لا إله إلا الله** »[(٢)] .

ومعنى لا إله إلا الله : أي لامعبود بحقٍ إلا الله .

قال الصنعاني : رأسُ العِبادةِ وأساسُها التَّوحيدُ لله الذي تُفيدُه كَلِمتُه التي إليها دَعَت جميعُ الرُّسُلِ ، وهي قَولُ : لا إلهَ إلَّا اللهُ ، والمرادُ اعتِقادُ معناها والعَمَلُ بمُقتَضاها ، لا مجَرَّدُ قَولِها باللِّسانِ . ومعناها : إفرادُ اللهِ بالعِبادةِ والإلَهيَّةِ ، والنَّفيُ والبراءةُ مِن كُلِّ مَعبودٍ دُونَه ، وقد عَلِمَ الكُفَّارُ هذا المعنى ؛ لأنَّهم أهْل اللِّسانِ العَربيِّ فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥][(٣)] .

---

(١) البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .
(٢) البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) « تطهير الاعتقاد » للصنعاني ، ص(٩٢) .

وقال محمد بن عبدالوهاب : معناها : « لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وَحْدَه ، و (لا إلهَ) نافيًا جميعَ ما يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ ، (إلَّا اللهُ) مُثبِتًا العِبادةَ للهِ وَحْدَه لا شَريكَ له في عبادتِه ، كما أنَّه ليس له شَريكٌ في مُلْكِه ، وتفسيرُها الذي يوضِّحُها قَولُه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦ ـ ٢٨] ، وقولُه تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وقال عبدُ الرَّحمنِ بنُ حَسَن آل الشَّيخِ : « فدَلَّت لا إلهَ إلَّا اللهُ على نَفيِ الإلَهيَّةِ عن كُلِّ ما سِوى اللهِ تعالى كائِنًا ما كان ، وإثباتِ الإلَهيَّةِ لله وَحْدَه دونَ كُلِّ ما سِواه ، وهذا هو التَّوحيدُ الذي دعت إليه الرُّسُلُ ، ودَلَّ عليه القُرْآنُ مِن أوَّلِه إلى آخِرِه ، كما قال تعالى عن ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١ ـ ٢] ، فلا إلهَ إلَّا اللهُ لا تنفَعُ إلَّا مَن عَرَف مَدلولَها نفيًا وإثباتًا ، واعتَقَد ذلك وقَبِلَه وعَمِلَ به ، وأمَّا مَن قالها مِن غيرِ عِلمٍ واعتِقادٍ وعَمَلٍ ، فقد تقَدَّمَ في كلامِ العُلَماءِ أنَّ هذا جَهلٌ صِرفٌ ، فهي حُجَّةٌ عليه بلا رَيبٍ »[(١)] .

وقال سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز : « معنى الشَّهادة أن يَشهَدَ بلِسانِه وبقَلْبِه أنَّه لا معبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ ، يَشهَدُ بلِسانِه ويُؤمِنُ بقَلْبِه أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ ، يعني : لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ ، وأنَّ ما عَبَده النَّاسُ مِن دونِ اللهِ مِن أصنامٍ أو أمواتٍ أو أشجارٍ

(١) « فتح المجيد شرح كتاب التوحيد » ص(٢٨) .

أو أحجارٍ أو ملائكةٍ أو غيرِهم : كُلُّه باطِلٌ ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج : ٦٢] ، هذا معنى شَهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ ؛ أن تَشهَدَ عن عِلمٍ ويَقينٍ وصِدقٍ أنَّه لا معبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ ، وأنَّ ما عَبَده النَّاسُ مِن دونِ اللهِ كُلُّه باطِلٌ » .

وقال العلامة الشيخ محمد ابن عثيمين : « معنى شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ أن يَعتَرِفَ الإنسانُ بلِسانِه وقَلْبِه بأنَّه لا معبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ ، فكُلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ فهو باطِلٌ ؛ قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج : ٦٢] .

وقال في « فتح المجيد »[١] : « فإنَّ الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ، ونزهه عن كل ما يُنزه عنه وأقر بأنه وحده خالق كل شيء لم يكن موحداً حتى يَشهدَ أنْ لا إله إلا الله فيقر بأنَّ الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له والإله : المألوه المعبود ، الذي يستحق العبادة وليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع ، واعتقد أنَّ هذا هو أخص وصف الإله ، وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد لم يعرف حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله فإن مشركي العرب كانوا مُقرِّين بأن الله وحده خالق كل شيء ، وكانوا مع هذا مشركين ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] ، قالت طائفة من السلف : تسألهم من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله . وهم مع هذا يعبدون غيره » . نقله ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنه .

---

(١) « فتح المجيد » ص(١٢) .

فإنه من المعلوم والمتقرر أن أقسام التوحيد ثلاثة :

١ـ توحيد الربوبية : وهو إفراد الله بأفعاله

٢ـ توحيد الألوهية : وهو إفراد الله بأفعال العباد

٣ ـ توحيد الأسماء والصفات : وهو إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

والمقصود من ذلك والذي دعا إليه الرسل عليهم السلام أقوامهم إليه هو توحيد الألوهية وهو معنى « لا إله إلا الله » .



أركان لا إله إلا الله

أركان لا إله إلا الله : لهذه الكلمة العظيمة ركنان هما : النفي والإثبات .

فالركن الأول : « لا إله » وهو نفي العبادة عما سوى الله ، وإبطال الشرك ، ووجوب الكفر بكلِّ ما يعبد من دون الله .

والركن الثاني : « إلا الله » وهو إثبات العبادة لله وحده ، وإفراده سبحانه بجميع أنواع العبادة .

والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

فقوله : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ ﴾ معنى الركن الأول « لا إله » ، وقوله : ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ هو معنى الركن الثاني « إلا الله » .



شروط لا إله إلا الله

الأول : العلم بمعناها نفيًا وإثباتًا .

الثاني : اليقين ، وهو : كمال العلم بها ، المنافي للشك والريب .

الثالث : الإخلاص المنافي للشرك .

الرابع : الصدق المنافي للكذب .

الخامس : المحبة لهذه الكلمة ، ولما دلت عليه ، والسرور بذلك .

السادس : الانقياد لحقوقها ، وهي : الأعمال الواجبة ، إخلاصًا لله ، وطلبًا لمرضاته .

السابع : القبول المنافي للرد .



بعض فضائل لا إله إلا الله
في السنة النبوية

أيها المؤمنون إن مفتاح العبودية الأعظم هو شهادة أن لا إله إلا الله ، فلا إله إلا الله قامت بها السماوات والأرض ، ولا إله إلا الله فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ولا إله إلا الله أول دعوة الرسل لأقوامهم ، ولا إله إلا الله كلمة التقوى والإسلام ومفتاح الجنة دار السلام .

أيها المؤمنون إن فضائل لا إله إلا الله عظيمة كثيرة ، فمن ذلك أنها أول ما يطالب به العبد ليدخل في الدين الذي لا يقبل الله ـ تعالى ـ سواه ، ففي قصة بعث معاذ إلى اليمن : « **فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيهِ شَهادة أَنْ لا إلهَ إلا الله ، وأَنَّ مُحمَّدًا رَسُول الله** »[١] .

ومن فضائلها : أن بها يعصم دم العبد وماله قال النبي ﷺ : « **مَنْ قَالَ لا إلهَ إلا الله ، وكَفرَ بِمَا يُعبَدُ مَنْ دُونِ الله ، حَرُمَ مَالُهُ ، ودَمُهُ ، وحِسَابُهُ عَلَى الله عزَّ وجلَّ** »[٢] رواه مسلم .

---

(١) البخاري (١٤٥٨) وفي أبواب وكتب أخرى ، ومسلم (١٩) ، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) مسلم (٣٧) (٢٣) ، من حديث طارق بن أشيم الأشجعي رضي الله عنه .

ومن فضائل « لا إله إلا الله » : أنها تحرم على النار من قالها صادقًا مخلصًا ففي « الصحيحين » من حديث عتبان قال : قال رسول الله ﷺ : « **إِنَّ الله حرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ : لا إلهَ إلا الله يَبْتَغِي بذَلِكَ وَجْهَ الله** »[١] .

ومن فضائلها : أن بها يدخل العبد الجنة دار السلام قال النبي ﷺ : « **أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله ، و أَنِّي رَسُولُ الله ، لا يَلْقَى الله بِهِمَا عَبدٌ غَيرَ شَاكٍّ فِيهِمَا ، فيُحْجَبَ عن الجنَّة** »[٢] رواه مسلم .

ومن فضائلها : أنه من كان آخر كلامه من الدُّنيا لا إله إلا الله دخل الجنة ، فعن معاذ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَنْ كَانَ آخرُ كَلامهِ مِنَ الدُّنيا لا إلهَ إلا الله دَخَلَ الجنَّة** »[٣] رواه أبو داود بسند صحيح .

ومن فضائل هذه الكلمة المباركة : أنها أفضل ما نطق به العبد ففي الترمذي بسند صحيح قال رسول الله ﷺ : « **أفضلُ مَا قُلْتُ أنا والنَّبيُّونَ مِنْ قَبْلي لا إلهَ إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ** »[٤] .

---

(١) البخاري (٤٢٥) وفي أبواب وكتب أخرى ، ومسلم (٣٣) ، من حديث عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٢٧) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أبو داود (٣١١٦) ، وأحمد (٢٢١٢٧) ، والحاكم ١/ ٣٥١ ، والطبراني في « الكبير » ٢٠/ ١١١ (٢٢١) ، وهو حديث صحيح ، كما في « صحيح أبي داود » (٢٦٧٣) .

(٤) الترمذي (٣٥٨٥) ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، وهو حديث حسن كما قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » (١٥٠٣) .

ومن فضائل هذه الكلمة الطيبة : أن من قالها بإخلاص حصلت له شفاعة النبي ﷺ ففي « الصحيح » أن النبي ﷺ قال : « **أَسْعَدُ النَّاس بشَفاعَتِي يَوْمَ القِيَامةِ مَنْ قَالَ : لا إلهَ إلا الله خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ** »(١) .

ومن فضائل لا إله إلا الله : أنه لا يعدلها شيء في الميزان ، فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنَّ نوحًا عَليهِ السَّلام قَالَ لابنهِ عِندَ مَوْتِهِ : آمرُكَ بلا إلهَ إلا الله ، فإنَّ السَّمواتِ السَّبعَ ، و الأرْضِينَ السَّبعَ ، لَوْ وُضِعَتْ في كِفَّةٍ ، ووُضِعَتْ لا إلهَ إلا الله في كِفَّةٍ ، رَجَحَتْ بهنَّ لا إلهَ إلا الله ، ولَوْ أنَّ السَّمواتِ السَّبعَ ، و الأرْضِينَ السَّبعَ ، كُنَّ حَلْقةً مُهْملةً ، قَصَمتْهُنَّ لا إلهَ إلا الله** »(٢) رواه أحمد بسند جيد .

ومن فضائل لا إله إلا الله : أنها إذا رسخت في قلب العبد بددت ضباب الذنوب وغيومها فعن عبد الله بن عمر مرفوعًا : « **يصاحُ برجل مِنْ أُمَّتي على رُؤوسِ الخَلائقِ يَوْمَ القِيَامةِ ، فينشرُ لهُ تِسْعةً وتسعينَ سِجلاً ، كلُّ سِجلٍّ مَدَّ البَصرِ ، ثُمَّ يُقالُ : أتُنكِرُ مِنْ هَذَا شيئًا ؟ فيقول : لا يَا ربِّ ، فيقال : ألكَ عُذرٌ أوْ حَسَنةٌ ؟ فيقول : لا . فيقال : بلى إنَّ لكَ عِنْدنا اليَوْم حَسَنةً ، وإنَّهُ لا ظُلْمَ عَليكَ ، فيخرجُ لهُ بِطَاقةٌ ، فِيهَا أشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا الله ، وأنَّ مُحمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ فيقولُ : يا رب ما هَذهِ البطاقة مع هَذهِ السِّجلات ؟ فيُقال : إنَّكَ لا تظلم فتوضع في كفة و البطاقة في كفة فَطاشَتِ السَّجلاتُ ، وثَقُلتِ البِطَاقةُ** »(٣) رواه أحمد والترمذي وغيرهما ، بإسناد صالح .

---

(١) البخاري (٩٩) ، وفي أبواب وكتب أخرى ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أحمد (٦٥٨٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وإسناده صحيح .

(٣) حديث البطاقة أخرجه أحمد (٦٩٩٤) ، والترمذي (٢٦٤١) ، وابن ماجه (٤٣٠٠) ، وابن حبان (٢٥٢٤) « موارد » ، و الحاكم ١/ ٦ ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

أيها المؤمنون إن من فضائل لا إله إلا الله الكبار أنها تثمر العمل الصالح ، فجميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة إنما هي ثمرة هذه الكلمة المباركة ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٢٥ ـ ٢٦] .

فشبه ـ سبحانه ـ الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، فمن رسخت هذه الكلمة الطيبة في قلبه إيمانًا وتصديقًا انقادت جوارحه لأمر الله تعالى عملاً وتطبيقًا ، فلا إله إلا الله ما أعظم هذه الكلمة وأكثر فضائلها .

أيها الإخوة المؤمنون إن لنا مع هذه الفضائل العظام وقفتين :

الوقفة الأولى : في معنى هذه الكلمة الطيبة ، فإنَّ كثيرًا من الناس لا يعرف معناها وقد لا يدرك حقيقة مضمونها ، ولا شك أنَّ هذا سبب كبير في تخلف هذه الفضائل عن قائلها ، أيها المؤمنون إن معنى قولكم : « لا إله إلا الله » أنكم تقرُّون بأنه لا معبود بحق إلا الله تعالى ، فلا يستحق أحد أن يصرف له شيء من العبادات القلبية كالمحبة والخوف والرجاء والتوكل غير الله تعالى ، ولا يستحق أحد أن يصرف له شيء من العبادات العملية من صلاة ونذر وذبح ودعاء غيره سبحانه ، بل الواجب أن يفرد جلَّ وعلا بجميع العبادات الظاهرة والباطنة .

فإن أخلَّ العبد بشيء من ذلك فصرف العبادة لغير الله تعالى ، فإن « لا إله إلا الله » لا تنفعه بشيء ، بل هو مشرك كافر متوعد بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢] ، فاحذروا الشرك

يا عباد الله ، فإنَّ خطره عظيم ، اللهم إنا نعوذُ بك أن نشرك بك ونحن نعلم ، ونستغفرك مما لا نعلم .

الوقفة الثانية : أنه لا يكفي في حصول تلك الفضائل والخيرات المرتبة على قول « لا إله إلا الله » مجرَّد قول اللسان فقط ، قال ابن القيِّم رحمه الله عن الاكتفاء بقول اللسان دون العمل بها : « فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام » ثم قال رحمه الله : فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار ، فلا بدَّ من قول القلب وقول اللسان وعمل الجوارح .

أيها المؤمنون : إنَّ قول القلب الذي لا بدَّ من توفره لتحصيل تلك الفضائل وإدراك تلك المناقب هو أن تكون أعمالك يا عبد الله كلها لله ، وأقوالك لله ، عطاؤك لله ، ومنعك له حبك لله ، وبغضك له معاملاتك كلها لوجه الله وحده ، لا تريد بذلك من الناس جزاءً ولا شكورًا ، فمن صاغ قلبه وقوله وعمله على ذلك ، فإنه من أهل لا إله إلا الله ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أيها المؤمنون اقدروا لهذه الكلمة العظيمة قدرها ، فإنها مفتاح النجاة وباب السعادة في الدُّنيا والآخرة .

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله مبينًا فضائل التوحيد ما نصه :

« ١ـ ومن فضائله : أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوبتهما .

٢ ـ ومن أجل فوائده أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أذى مثقال حبة خردل ، وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية .

٣ ـ ومنها : أنه يحصل لصاحبه الهدى الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة .

٤ ـ ومنها : أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه ، وأن أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه .

٥ ـ ومن أعظم فضائله : أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد ، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت .

٦ ـ ومن فضائله : أنه يسهِّل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات ، فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه ، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي ، لما يخشى من سخطه وعقابه .

٧ ـ ومنها : أن التوحيد إذا كمل في القلب حبَّب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه ، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، وجعله من الراشدين .

٨ ـ ومنها : أنه يخفف عن العبد المكاره ويهون عليه الآلام . فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان ، وتلقيه المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة .

٩ ـ ومن أعظم فضائله : أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم ، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي .

ويكون مع ذلك متألهًا متعبدًا لله ، لا يرجو سواه ولا يخشى إلا إياه ، ولا ينيب إلا إليه ، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه .

١٠ ـ ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء : أن التوحيد إذا تمَّ وكمل في القلب وتحقق تحققًا كاملًا بالإخلاص التام فإنه يُصَيِّرُ القليل من عمله كثيرًا ، وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب ، ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السماوات والأرض وعمارها من جميع خلق الله ، كما في حديث أبي سعيد المذكور في الترجمة ، وفي حديث البطاقة التي فيها (لا إله إلا الله) التي وزنت تسعة وتسعين سجلًا من الذنوب ، كل سجل يبلغ مد البصر . وذلك لكمال إخلاص قائلها ، وكم ممن يقولها لا تبلغ هذا المبلغ ، لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد .

١١ـ ومن فضائل التوحيد : أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدُّنيا والعز والشرف وحصول الهداية والتيسير لليسرى وإصلاح الأحوال والتسديد في الأقوال والأفعال .

١٢ـ ومنها : أن الله يدافع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدُّنيا والآخرة ، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره ، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة والله أعلم »[١] . اهـ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « وفضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون وهي رأس الأمر كله »[٢] .

---

(١) « القول السديد شرح كتاب التوحيد » للسعدي ، ص(٢٢ ـ ٢٣) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (٢/ ٢٥٦) .

فتح الرحمن بأوصاف وأسماء لا إله إلا الله في القرآن

١ـ الحنيفية هي لا إله إلا الله :

عن قتادة قال : الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله ، والحنيف هو : المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد ، كما قال ابن كثير ، والدليل قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

قال ابن كثير : « قال قتادة : الحنيفية : شهادة أن لا إله إلا الله . يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله ، عز وجل والختان »[(١)] .

وهذا الأثر عن قتادة يوضِّح أنَّ الحنيفية هي الإسلام الصحيح ، المتمثل في شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وتوحيد الله تعالى والعمل بما جاء به النبي ﷺ وهو الميل عن الشرك إلى التوحيد الخالص لله ، وهي الدِّين الفطري السمح الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام (الحنيف) هو الذي يوحد الله ويتبع ملة إبراهيم ، والحنف لغةً هو الميل ، وهو الميل عن الشرك ، قاصداً التوحيد ، والحنيفية هي الإسلام .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في « جامع المسائل » وفي « تفسير آيات أشكلت » : وذكر الثعلبي ومن اتبعه كالبغوي وغيره عن ابن عباس قال : الحنيف المائل عن الأديان إلى دين الإسلام . قالوا : وأصله من حنف الرجل ، وهو ميل وعوج في القدم ، ومنه قيل للأحنف بن قيس ذلك ، لأنه كان أحنف القدم .

---

(١) « تفسير ابن كثير » (١/ ٤٤٨) .

ثم قال ابن تيمية في نفس السياق : وروى ابن أبي حاتم وغيره من التفسير الثابت عن قتادة تفسير ابن أبي عروبة عنه قال : « الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله ، يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وما حرم الله والختان ، وكانت حنيفية في الشرك ، وكانوا يحرمون في شركهم الأمهات وما تقدم من القرابات ، وكانوا يحجون البيت وينسكون المناسك »[1] .

فذكر قتادة أنها التوحيد واتباع ملة إبراهيم بتحريم ما حرم الله والختان ، وأنهم في شركهم كانوا ينتحلون الحنيفية ، فيحرمون ذوات المحارم ويحجون ويختتنون ، وهذا مما تمسكوا به من دين إبراهيم مع شركهم الذي فارقوا به أصل الحنيفية ، لكن كانوا ينتحلونها .

ثم قال ابن تيمية : والله أمر محمدًا وأمته أن يكونوا حنفاء ، فقال في النحل ـ وهي مكية ـ : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل : ١٢٣] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠] : يمدح تبارك وتعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم ، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ، ومن اليهودية والنصرانية فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ ، فأما " الأمة " فهو الإمام الذي يقتدى به . والقانت : هو الخاشع المطيع . والحنيف : المنحرف قصدا عن الشرك إلى التوحيد ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

---

(١) « تفسير ابن أبي حاتم » (١/ ٢٤٢) .

قال سفيان الثوري ، عن سلمة بن كهيل ، عن مسلم البطين ، عن أبي العبيدين : أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت ، فقال : الأمة : معلم الخير ، والقانت : المطيع لله ورسوله[١] .

وعن مالك قال : قال ابن عمر : الأمة الذي يعلم الناس دينهم .

وقال الأعمش ، عن الحكم ، عن يحيى بن الجزار ، عن أبي العبيدين أنه جاء إلى عبد الله فقال : من نسأل إذا لم نسألك ؟ فكأن ابن مسعود رقَّ له ، فقال : أخبرني عن الأمة فقال : الذي يعلِّمُ الناس الخير .

وقال الشعبي : حدَّثني فروة بن نوفل الأشجعي قال : قال ابن مسعود : إن معاذا كان أمة قانتًا لله حنيفًا ، فقلت في نفسي : غلط أبو عبد الرحمن ، إنما قال الله : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ فقال : أتدري ما الأمة وما القانت ؟ قلت : الله [ورسوله] أعلم ، قال : الأمة الذي يعلم [الناس] الخير . والقانت : المطيع لله ورسوله ، وكذلك كان معاذ معلم الخير ، وكان مطيعًا لله ورسوله .

وقد روي من غير وجه ، عن ابن مسعود حرره ابن جرير .

وقال مجاهد : ﴿ أُمَّةً ﴾ أي : أمة وحده ، والقانت : المطيع . وقال مجاهد أيضًا : كان إبراهيم أمة ، أي : مؤمنًا وحده ، والناس كلهم إذ ذاك كفار .

وقال قتادة : كان إمام هدى ، والقانت : المطيع لله .

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : ١٢١] ، وقوله : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ أي : قائمًا بشكر نعم الله عليه ، كما قال : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى

(١) انظر : « تفسير ابن كثير » (٤/ ٦١١) .

وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] ، أي : قام بجميع ما أمره الله تعالى به . وقوله : ﴿ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾ أي : اختاره واصطفاه ، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١] ثم قال : ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي .

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٢] ، وقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي : جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ، ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي : لسان صدق .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٣] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي : ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك ـ يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ـ : ﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ كما قال : في الأنعام : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١][(١)] .

وقد افتخر رسول الله محمد ﷺ بانتمائه لملة أبيه إبراهيم عليه السلام ، ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١ ـ ١٦٣] .

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٤/ ٦١٠ ـ ٦١٣) .

يقول تعالى أمرًا لنبيه ﷺ سيد المرسلين : أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف .

و﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ أي : قائمًا ثابتًا ، ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة : ١٣٠] ، وأمر الله تعالى خليله ورسوله محمدًا ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٣] .

وقال الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في « ثلاثة الأصول » : اعلم أرشدك الله لطاعته أنَّ الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدِّين ؛ وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦][(١)] .

ومعنى يعبدون : يوحدون . وأعظم ما أمر الله به : التوحيد ، وهو إفراد الله بالعبادة ؛ وأعظم ما نهى عنه : الشرك وهو دعوة غيره معه . والدليل قوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ [النساء : ٣٦] .

فالحنيفية هي التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ، وهي الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

قال أبو جعفر : وهذا تكذيبٌ من الله عز وجل دعوَى الذين جادلوا في إبراهيم وملته من اليهود والنصارى ، وادَّعوا أنه كان على ملتهم وتبرئة لهم منه ، وأنهم لدينه

---

(١) « الأصول الثلاثة » ص(٧) .

مخالفون وقضاءٌ منه عز وجل لأهل الإسلام ولأمة محمد ﷺ أنهم هم أهل دينه ، وعلى منهاجه وشرائعه ، دون سائر أهل الملل والأديان غيرهم[١] .

وقال السعدي رحمه الله : وقال عز وجل : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٥] . أي : دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم ، زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال . قل له مجيبًا جوابًا شافيًا : ﴿ بَلْ ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي : مقبلًا على الله ، معرضًا عما سواه ، قائمًا بالتوحيد ، تاركًا للشرك والتنديد . فهذا الذي في اتباعه الهداية ، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية .

ثم قال الله تعالى في الآية التي تليها مباشرةً : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

قال السعدي : هذه الآية الكريمة ، قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به . فقد اشتملت هذه الآية الكريمة ـ على إيجازها واختصارها ـ على أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل ، وجميع الكتب ، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم ، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك ، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين ، ومن ادَّعى النبوة من الكاذبين ، وعلى تعليم الباري عباده ، كيف يقولون ، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية

---

(١) « تفسير الطبري » (٥/ ٤٨٥) .

المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة ، فسبحان من جعل كتابه تبيانًا لكل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون[١] .

وتأمل وتدبر هذه الآيات الكريمة التي ذكرت الحنيفية :

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] .

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٥] .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] .

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٩] .

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١] .

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يونس : ١٠٥] .

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠] .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٣] .

---

(١) « تفسير السعدي » ص(٦٧) .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] .

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] .



٢ـ العروة الوثقى : كلمة التوحيد لا إله إلا الله

والدليل قوله عز وجل ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٢] .

قال ابن عباس رضي الله عنه : العروة الوثقى لا إله إلا الله .

والعروة في اللغة : (العُرْوَة) : عُروة القميص و الكوز و الدَّلو ، و تُستعار لما يُوثق به و يُعوَّل عليه ، وكلُّ ما يُوخَذ باليد من حلقة فهو (عُرْوة) « و ذلك أوثق عُرى الايمان » .

ما يوثق بهِ و يُعوَّل عليهِ يقال : « الصحابة عُرَى الاسلام » .

يقال « أَلقى إليه العُرى » أي : فوِّض إليه الأمرَ .

وقيل : العروة : طرف الحبل إذا ربط على هيئة الحَلْقَة ، يُمْسِكُ بها من ينزل في بئر أو يصعد منها ، والمراد بها هنا وسيلة النجاة ، والوثقى : شديدة الربط ، لا أوثق منها . ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ أي : لا انحلال لها ، فلا يَهْلِكُ المتعلق بها ، بل يصل بتمسكه بها إلى الجنة ولاينقطع عن الجنة إلا لمن لم يتمسك بها ، وهي أكثر وأعظم مايوثق به والتي من تمسك بها نجا ، ومن حُرِمَ منها هلك ، فمن آمن بها فقد عقد لنفسه من الدين عقداً وثيقًا لايمكن حله ، وقال الشوكاني : وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن معاذ أنه سئل عن قوله : ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ قال : لا انقطاع لها دون دخول الجنة .

قوله عز وجل : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ .

قال الطبري : عن سعيد بن جبير قوله : ﴿ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ ، قال : لا إله إلا الله .

ثم قال : « والعروة » ، في هذا المكان ، مثل للإيمان الذي اعتصم به المؤمن ، فشبهه في تعلقه به وتمسكه به ، بالمتمسك بعروة الشيء الذي له عروة يتمسك بها ، إذ كان كل ذي عروة فإنما يتعلق من أراده بعروته .

وقال الشوكاني في « فتح القدير » : وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : العروة الوثقى لا إله إلا الله[١] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن معاذ أنه سئل عن قوله : ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ قال : لا انقطاع لها دون دخول الجنة .

وقال ابن كثير : أي : من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ، ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو ﴿ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ أي : فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم[٢] .

---

(١) « فتح القدير » (١/ ٣١٧) .

(٢) « تفسير ابن كثير » (١/ ٦٣٨) .

وقوله : ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ ﴾ أي : فقد استمسك من الدين بأقوى سبب ، وشبه ذلك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوي شديد ولهذا قال : ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ ﴾ قال سعيد بن جبير والضحاك : يعني لا إله إلا الله .

وقال معاذ بن جبل في قوله : ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ أي : لا انقطاع لها دون دخول الجنة

وقال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يكفر بالطاغوت يعني يتبرأ منه يعتقد بطلانه يتبرأ من الشرك ، ويؤمن بالله يعني يصدق بأن الله معبوده الحق وإلهه الحق ، ويؤمن بالشريعة وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، وينقاد لذلك ، هذا هو المؤمن ، فقد استمسك يعني استعصم بالعروة الوثقى وهي لا إله إلا الله كلمة التوحيد يعني فقد استمسك بالإسلام حقًا ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ يعني لا انقطاع لها ، بل من استمسك بها صادقًا واستقام عليها ، وصل إلى الجنة والكرامة ، لأن لها حقوق وهي توحيد الله وطاعته ، فمن استقام على شهادة أن لا إله إلا الله وتوحيد الله وطاعته واتباع شريعته وترك ما نهى عنه ، فهذه الكلمة توصله إلى دار السلامة إلى دار الكرامة ، بفضل الله ورحمته جلَّ وعلا .

فكلمة التوحيد ، هي العروة الوثقى ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ والعروة كما في

اللغة : المقبض ، وموضع الإمساك وشد الأيدي ، وهي وثقى : بمعنى أنها أكثر ما يوثق به ، لأن (وثقى) فعل تفضيل جاء على صيغة المؤنث ، فالمقصود أن من آمن بكلمة التوحيد فقد عقد لنفسه من الدين عقدًا وثيقًا لا يمكن حله ؛ فهي في نفسها محكمة قوية ، وربطها قوي شديد ، وحبلها ممدود إلى السماء .

وتفسير (العروة الوثقى) بكلمة التوحيد ، جاء على لسان سعيد بن جبير والضحاك ، فقد روى الطبري عنهما ذلك وأورده عند تفسير هذه الآية .

وهذه الأية الثانية كدليل على اسم العروة الوثقى ، وأنها من أسماء لا إله إلا الله في القرآن الكريم والتي يسر الله جمعها في هذا الكتاب ، وقال تعالى : ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ .

قال ابن كثير : يقول تعالى مخبرًا عمن أسلم وجهه لله ، أي : أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ، ولهذا قال : ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ أي : في عمله ، باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ، ﴿ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ أي : فقد أخذ موثقًا من الله متينًا أنه لا يعذبه ، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[١] .

وقال البغوي : ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يعني : لله ، أي : يخلص دينه لله ، ويفوض أمره إلى الله ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ في عمله ﴿ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ أي : اعتصم بالعهد الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[٢] .

وقال السعدي : ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي : يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصًا له دينه ﴿ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾ في ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعًا ، قد

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٦/ ٣٤٧) .

(٢) « تفسير البغوي » (٦/ ٢٩١) .

اتبع فيه الرسول ﷺ . أو : ومن يسلم وجهه إلى اللّه ، بفعل جميع العبادات ، وهو محسن فيها ، بأن يعبد اللّه كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه يراه . أو ومن يسلم وجهه إلى اللّه ، بالقيام بحقوقه ، وهو محسن إلى عباد اللّه ، قائم بحقوقهم . والمعاني متلازمة ، لا فرق بينها إلا من جهة [اختلاف] مورد اللفظتين ، وإلا فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين ، على وجه تقبل به وتكمل ، فمن فعل ذلك فقد أسلم ، و ﴿ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي : بالعروة التي من تمسك بها ، توثق ونجا ، وسلم من الهلاك ، وفاز بكل خير . ومن لم يسلم وجهه للّه ، أو لم يحسن لم يستمسك بالعروة الوثقى ، وإذا لم يستمسك بالعروة الوثقى لم يكن ثَمَّ إلا الهلاك والبوار .

﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي : رجوعها وموئلها ومنتهاها ، فيحكم في عباده ، ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم ، ووصلت إليه عواقبهم ، فليستعدوا لذلك الأمر[1] .

وهكذا ينبغي للمسلم أن يتمسك تمسكًا شديداً بهذه العروة الوثقى ، التي هي أعظم مايوثق به وهي لا إله إلا الله بمعرفة معناها والعمل بمقتضاها ، وأداء حقوقها والدعوة إليها ، والتبشير بها والحذر من نواقضها ، والتمسك بالكتاب العزيز والسنَّة المطهرة وعقيدة السلف الصالح وهديهم ومنهجهم ويتوثق من ذلك وبذلك علمًا وعملاً ودعوةً وثباتًا بنفسه وتثبيتًا لغيره ، ويحمد الله الذي جعله من أهل لا إله إلا الله وأنعم عليه بها فهي أعظم النعم وأكبر المنن ، كما قال تعالى ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات : ١٧] ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

---

(١) « تفسير السعدي » (١/ ٦٥٠) .

وأن يكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى بلا إله إلا الله ، فهي أفضل الذكر قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « **أفضلُ الذِّكْرِ : لا إله إلا اللهُ ، وأفضلُ الدعاءِ : الحمدُ للهِ** »[١] .

وعضّ أيها المسلم على الحقِّ بالنواجذ ، وأعظم الحق لا إله إلا الله ، كما أوصاك نبيك ، فعن أبِي نَجيحٍ العِرْباضِ بنِ سارِيةَ رضي اللهُ عنه قَالَ : « وَعَظنا رَسولُ اللهِ ﷺ موعظةً بلِيغةً وَجِلتْ منها القلوبُ ، وذَرَفتْ منها العُيون ، فَقُلنَا : يا رَسولَ اللهِ كأنَّها مَوْعظةُ مُودِّعٍ فأوْصِنا . قَالَ : « **أُوصِيكمْ بِتقوَى اللهِ ، والسَّمعِ والطَّاعةِ وإنْ تأمَّرَ عليكم عبدٌ حَبَشِيٌّ ، وإنَّه مَنْ يَعِشْ منكم فَسَيرَى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ ، عَضُّوا عليها بالنَّواجذِ ، وإيَّاكم ومُحدثاتِ الأمورِ ، فإنَّ كُلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ** »[٢] .

وأسأل ربك الثبات عليها حتى الموت كما أوصى الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .



(١) الترمذي (٣٣٨٣) ، وابن ماجه (٣٨٠٠) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٨٣١) ، وابن حبان (٨٤٦) « الإحسان » ، و « الحاكم ١/ ٤٩٨ ، والحديث حسن .

(٢) أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٨) ، وأحمد ٤/ ١٢٦ و١٢٧ ، وابن ماجه (٤٢) ، والدارمي (٩٦) ، وابن حبان (٥) « الإحسان » ، وصححه الحاكم ١/ ٩٥ ـ ٩٧ ووافقه الذهبي .

٣ ـ كلمة التقوى : لا إله إلا الله ، وهي رأس كل تقوى

والدليل قول الله سبحانه وتعالى ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٦] .

وسميت هذه الكلمة لا إله إلا الله بكلمة التقوى لأمرين :

١ ـ أن هذه الكلمة تنتج التقوى فتكون سببًا لها ، وقد تضمنت أعظم ما يُتقى الله عزَّ وجلَّ به وهو التوحيد .

٢ ـ هي شعار المتقين فالمتقون مجتمعون على الإقرار بهذه الكلمة والتقوى هي الوصية التي أوصى بها الله عز وجل عباده ، أجمعين كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ ﴾ [النساء : ١٣١] . وهي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، وقال العلامة العثيمين رحمه الله : التقوى فُسِّرت بعدة تفاسير ، وأحسنها أن يقال : إن التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

فينبغي للمسلم أن يجاهد نفسه على فعل الطاعة واجتناب المعصية حتى يكون من المتقين وأن يبادر إلى التوبة النصوح متى ماوقع في ذنبٍ أو تقصيرٍ في واجب .

قال البغوي ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، والسدي ، وابن زيد ، وأكثر المفسرين : كلمة التقوى « لا إله إلا الله » .

وروى ابن جرير في « تفسيره »[١] ، عن علي ، وابن عمر ، والمسور بن مخرمة ، وابن زيد ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن عباس ، وعمرو بن ميمون ، وقتادة ، والضحاك ، وسلمة بن كهيل ، وعبيد بن عمير ، وطلحة بن مصرف ، والربيع ، والسدي ، وجماعة ، أن كلمة التقوى : هي لا إله إلا الله . زاد عطاء ، وجماعة : وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . وعزاه العلامة الشوكاني في « تفسيره »[٢] إلى الجمهور ، ورجحه الحافظ ابن كثير في « تفسيره »[٣] ، وهو الراجح ، والله أعلم .

وقال ابن كثير : وقوله : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾ ، وذلك حين أبوا أن يكتبوا « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وأبوا أن يكتبوا : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ، وهي قول : « لا إله إلا الله » .

ثم قال ابن كثير : وقال الله جل ثناؤه : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ وهي : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية ، وكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة .

وقال عطاء بن أبي رباح : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

---

(١) « تفسير الطبري » (٢١/ ٣١٠ ـ ٣١٣) .

(٢) « فتح القدير » (٥/ ٧٢ـ٧٣) .

(٣) « تفسير ابن كثير » (٤/ ٢٦٦) .

وقال يونس بن بكير بسنده عن المسور : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ قال : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له .

وقال الثوري ، عن علي : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ قال : لا إله إلا الله ، والله أكبر . وكذا قال ابن عمر ، رضي الله عنهما .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ قال : يقول : شهادة أن لا إله إلا الله ، وهي رأس كل تقوى .

وقال عطاء الخراساني : هي : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

وقال قتادة : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ قال : لا إله إلا الله . ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ : كان المسلمون أحق بها ، وكانوا أهلها .

وكلمة التوحيد ، هي كلمة التقوى ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ وقد ذكر الله هذا الوصف في معرض صلح الحديبية ، حين استنكف كفار قريش عن النطق بالشهادتين واستكبروا عن ذلك ، فبين الله إلزامه للمؤمنين بقول لا إله إلا الله التي يتقون بها النار ، وأليم العذاب ، وحكم لهم باستحقاق هذه الكلمة دون أهل الكفر ، وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إني لأعلمُ كَلِمةً لا يَقُولُها عَبدٌ حَقًّا مِنْ قَلبِهِ إلا حُرِّمَ عَلَى النَّارِ** » فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنا أُحدِّثك ما هي ؟ هي كلمةُ الإخلاص التي ألزمها الله تبارك وتعالى مُحمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام وأصحابه ، وهي كلمةُ التَّقوى التي ألاصَ إليها نبيُّ الله عمَّهُ أبا طالب عند الموت : شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلا الله »[1] رواه أحمد .

---

(١) أحمد (٤٤٧) ، والحاكم ١/ ٣٥١ ، وإسناده قوي كما ذكر الشيخ شعيب الأرناؤوط رحمه الله .

ومعنى « ألاص » : أراده عليها وأرادها منه .

وورد هذا الربط بين كلمة التقوى والتوحيد عن أبي بن كعب رضي الله عنه ، رواه البخاري معلقًا .

وقال السعدي : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ وهي « لا إله إلا الله » وحقوقها ، ألزمهم القيام بها ، فالتزموها وقاموا بها ، ﴿ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا ﴾ من غيرهم ﴿ و ﴾ كانوا ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ الذين استأهلوها لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير ، ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .



٤ ـ لا إله إلا الله هي نعمة الله ظاهرةً وباطنةً

بل هي أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده المؤمنين ، والدليل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : ٢٠] ، عن مجاهد ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وفي أول سورة النحل والتي تسمى سورة النعم قال الله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢] وهذه الآية هي أول ماعدَّد الله على عباده من النعم في هذه السورة فدل ذلك على أن التوفيق لذلك هو أعظم نعم الله تعالى التي أسبغها على عباده كما قال سبحانه ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ قال مجاهد رحمه الله : لا إله إلا الله

وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

يعني بـ « لا اله إلا الله » .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ .

قال الطبري : عن مجاهد ، عن ابن عباس أنه قرأها : ﴿ وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَتهُ ظَاهِرةً وبَاطِنةً ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وعن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ قال : كان يقول : هي لا إله إلا الله .

وعن حميد الأعرج ، عن مجاهد ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وعن قَيْس ، عن ابن عباس ﴿ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ قال : لا إله إلا الله . وقوله : ﴿ ظَٰهِرَةً ﴾ يقول : ظاهرة على الألسن قولا وعلى الأبدان وجوارح الجسد عملا . وقوله : ﴿ وَبَاطِنَةً ﴾ يقول : وباطنة في القلوب ، اعتقادا ومعرفة .

وقال سفيان بن عيينه في « حلية الأولياء » : « ما أنعم الله على العباد نعمة أعظم من أن عرّفهم لا إله إلا الله »[1] .

فاحمدوا الله واشكروه على نعمة التوحيد ، نعمة لا إله إلا الله ، وليكن حاضرًا في قلوبكم شهود هذه المنة الكبرى والنعمة العظمى ، لتزدادوا شكراً للمنان ، الذي قال : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات : ١٧] .

وافرحوا بالإسلام والتوحيد والقرآن ، كما قال ربكم عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] ، فقوله : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ أي يعني بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق الإسلام والتوحيد والقرآن فليفرحوا ، فإنه أولى ما يفرحون به و﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وخيرٌ من الدنيا ومافيها ، ويكون حمد الله تعالى وشكره على نعمة التوحيد بالفرح به والعمل بمقتضاه ومجانبة ما يضاده وبتعلم التوحيد والثبات عليه والاستمرار في مدارسة العقيدة الإسلامية والدعوة إليها ونشرها بين الناس ، ليفلحوا ويسعدوا بها في الدُّنيا والآخرة .

❁ ❁ ❁

(١) ابن أبي الدنيا في كتاب « الشكر » (٩٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤١٨١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٧٢) .

٥ ـ الكلمة الطيبة : لا إله إلا الله فلا أطيب منها في الكلمات

والدليل قوله عز وجل ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ * يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٧] .

والكلمة : أصل العقيدة ، فإن الاعتقاد هو الكلمة التي يعتقدها المرء ، وأطيب الكلام والعقائد : كلمة التوحيد واعتقاد أن لا إله إلا الله ، والدليل قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٢٤] .

قال ابن كثير[١] : قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهو المؤمن ، ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ يقول : لا إله إلا الله في قلب المؤمن ، ﴿ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يقول : يرفع بها عمل المؤمن إلى السَّماء .

وهكذا قال الضحاك ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة وقتادة وغير واحد : إن ذلك عبارة عن المؤمن ، وقوله الطيب ، وعمله الصالح ، وإن المؤمن كالشجرة من النخل ، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت ، وصباح ومساء .

وهكذا رواه السدي ، عن مرة ، عن ابن مسعود قال : هي النخلة .

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٤/ ٤٩١) .

وقال البغوي : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ ألم تعلم ، والمثل : قول سائر لتشبيه شيء بشيء . ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ وهي قول : لا إله إلا الله ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهي النخلة يريد كشجرة طيبة الثمر . وقال ظبيان ، عن ابن عباس هي شجرة في الجنة .

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ أعلاها ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ كذلك أصل هذه الكلمة : راسخ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق ، فإذا تكلم بها عرجت ، فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله عزَّ وجلَّ . قال الله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر : ١٠] .

فلا إله إلا الله هي الكلمةُ الطَّيِّبةُ ، كذلك سمَّاها الله تبارك وتعالى الكلمة الطيبة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في قلب المؤمن وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ وقد شبهها الله تبارك وتعالى بالشجرة الطيبة .

وقال ابن القيِّم في « إعلام الموقعين عن رب العالمين »[1] : قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فَشَبَّه سُبحانه وتعالى الكلمةَ الطَّيِّبةَ بِالشَّجرةِ الطَّيِّبةِ ؛ لأنَّ الكلمةَ الطَّيِّبة تُثمرُ العملَ الصالحَ ، والشجرةَ الطَّيِّبة تُثمرُ الثمرَ النافعَ . وهذا ظاهرٌ على قولِ جمهور المفسِّرين الذين يقولون الكلمةُ الطَّيِّبة هي شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا الله فإنَّها تُثمرُ جميعَ

(١) « إعلام الموقعين عن رب العالمين » (١/ ١٣٢) .

الأعمالِ الصالحةِ الظاهرةِ والباطنةِ ، فكلُّ عمل صالح مرضيٌّ لله ثمرةُ هذهِ الكلمةِ ، وفي تفسير عليِّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : « كَلِمَةٌ طيِّبَةٌ شهادةُ أنْ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ » .

وقال أبو المظفر السمعاني رحمه الله في « التفسير »[١] : « أجمع المفسرون على أنَّ الكلمة الطيبة هاهنا : لا إلهَ إِلَّا الله » .

وقال ابن تيمية رحمه الله في « الانتصار لأهل الأثر »[٢] : والكلمة : أصل العقيدة ؛ فإن الاعتقاد هو الكلمة التي يعتقدها المرء ، وأطيب الكلام والعقائد : كلمة التوحيد واعتقاد أن لا إله إلا الله ، وأخبث الكلام والعقائد : كلمة الشرك ، وهو اتخاذ إله مع الله ؛ فإن ذلك باطل لا حقيقة له ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ ، ولهذا كان كلما بحث الباحث وعمل العامل على هذه الكلمات والعقائد الخبيثة لا يستفيد إلا ضلالًا وبعدًا عن الحق وعلمًا ببطلانها ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ * أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٣٩ ـ ٤٠] .

وقال السعدي : يقول تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ ﴾ وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، وفروعها ﴿ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ ﴾ وهي النخلة ﴿ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ ﴾ في الأرض ﴿ وَفَرۡعُهَا ﴾ منتشر ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ .

---

(١) (٣/ ١١٣) .

(٢) (ص١٠٩) .

﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ وهي كثيرة النفع دائمًا ، ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا ﴾ أي : ثمرتها ﴿ كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ فكذلك شجرة الإيمان ، أصلها ثابت في قلب المؤمن ، علمًا واعتقادًا . وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية ، والآداب الحسنة في السماء دائما يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره ، ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه ، فإن في ضرب الأمثال تقريبًا للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة ، ويتبين المعنى الذي أراده الله غاية البيان ، ويتضح غاية الوضوح ، وهذا من رحمته وحسن تعليمه . فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه ، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها ، في قلب المؤمن .

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر وفروعها فقال : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ المأكل والمطعم وهي : شجرة الحنظل ونحوها ، ﴿ ٱجْتُثَّتْ ﴾ هذه الشجرة ﴿ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ أي : من ثبوت فلا عروق تمسكها ، ولا ثمرة صالحة ، تنتجها ، بل إن وجد فيها ثمرة ، فهي ثمرة خبيثة ، كذلك كلمة الكفر والمعاصي ، ليس لها ثبوت نافع في القلب ، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث يستضر به صاحبه ، ولا ينتفع ، فلا يصعد إلى الله منه عمل صالح ولا ينفع نفسه ، ولا ينتفع به غيره[(١)] .

قال اللهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٥] .

---

(١) « تفسير السعدي » ص(٤٢٥) ، وللشيخ عبدالرحمن السعدي كتاب اسمه « التوضيح والبيان لشجرة الإيمان » يحسن الرجوع إليه والاستفادة منه .

أي : ألم تر ـ يا محمد ـ كيف مثل الله مثلًا ، وشبه شبها كلمة طيبة ـ وهي كلمة التوحيد : شهادة أن لا إله إلا الله ـ كشجرة طيبة الثمرة ـ كالنخلة ـ وجذورها ثابتة في الأرض ، وأغصانها مرتفعة نحو السماء ، فكذلك كلمة التوحيد ؛ أصلها ثابت وراسخ في قلب المؤمن ، وفروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء ، مرفوعة إلى الرب سبحانه ، تخرج هذه الشجرة الطيبة ثمرها كاملًا كثيرًا طيبًا في كل وقت وساعة من ليل ونهار ، وصيف وشتاء ، بمشيئة خالقها وأمره وتيسيره ، وكذلك كلمة التوحيد ؛ لا تزال تثمر الأعمال الصالحة للمؤمن في كل وقت ، ولا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار ، في كل حين[(١)] .

فإذا شهد العبد المؤمن بكلمة لا إله إلا الله ، عارفًا بمعناها وحقيقتها ، نفيًا وإثباتًا ، متصفًا بموجبها ، قائمًا قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته ، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد ، أصلها ثابت راسخ في قلبه ، وفروعها متصلة بالسماء ، وهي مخرجةٌ ثمرتها كل وقت ، فقم ياصاحب الكلمة الطيبة لا إله إلا الله بها حق القيام ، عملًا وتعليمًا ، ودعوةً ، وكن طيبًا بأخلاقك وأسلوبك ورفقك ، حتى تصل هذه الكلمة الطيبة إلى من هو بأشدّ الضرورة إليها ، ليؤمنوا بها ويسعدوا وتطيب حياتهم بذلك في الدارين ، فيثقل الله بذلك موازينك ، ويحل عليك رضوانه سبحانه ، ويطيب مأواك في جنات الخلد ، ولتكن دائمًا كلمتك طيبة ، وتتحرَّى الطيِّب من القول ، فإنَّ الكلمة الطيبة صدقة ، وبها تكسب قلوب الآخرين وتوصل إليهم الخير والحق وتسلم من شرورٍ كثيرة ، قال عز وجل ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء : ٥٣] .

---

(١) ينظر : « التفسير المحرر » سورة إبراهيم ، (ص : ٣٣١) .

٦ـ القول الثابت : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

والدليل قول الله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٤] .

في « تفسير الطبري »[١] :قال أبو جعفر : يعني تعالى ذكره بقوله : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ، يحقِّق الله أعمالهم وإيمانهم ﴿ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ ، يقول : بالقول الحق ، وهو فيما قيل : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدًا رسول الله .

وقال ابن كثير : عن البراء بن عازب ، رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « **المُسلِمُ إذا سُئِلَ في القَبرِ ، يشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وأنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ الله ، فذلك قوله** : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ »[٢] .

و قال البغوي : قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ كلمة التوحيد ، وهي قول : لا إله إلا الله ﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني قبل الموت ﴿ وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ يعني في القبر . هذا قول أكثر أهل التفسير .

وعن طاوس عن أبيه ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قال : لا إله إلا الله ﴿ وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ المسألة في القبر ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال عكرمة : عن تلك الشهادة فلا يهتدون أبداً .

---

(١) (١٣/ ٦٥٧) .

(٢) البخاري (٤٦٩٩) ، ومسلم (٢٨٧١) .

وقال السَّمرقنديُّ : « قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ بلا إلهَ إلَّا اللهُ ، ﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني : يثبِّتُهم على ذلك القَولِ عندَ النَّزعِ ، ﴿ وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ يعني : في القبرِ »[١] .

ومِن رَحمةِ اللهِ بهذه الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ أنَّه جعلَ التَّوحيدَ بطاقةَ نَجاةٍ في الدُّنيا ، وعندَ السُّؤالِ في القبرِ ، وكذلك في الآخرة ؛ فإنَّه يكونُ أثقلَ في الميزانِ مِن كلِّ الأعمالِ كما في حديث البطاقة ، عندما توزن ذنوب عبدٍ بلغت (٩٩) سجلاً كل سجل منها مد البصر ببطاقةٍ فيها لا إله إلا الله حتى إنه يقول : يا ربِّ وما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجلَّاتِ ؟ فيقولُ اللهُ تعالَى : إنَّك لا تُظلمُ . فتُوضعُ تلك البطاقةُ في كِفَّةِ الميزانِ . قال رسولُ اللهِ ﷺ : « **فطاشتِ السِّجلَّاتُ ، وثقُلتِ البطاقةُ** »[٢] ذلك أنه لايثقل مع اسم الله شيء .

وفي هذا الحَديثِ حديث البراء يُخبِرُ النَّبيُّ ﷺ أن المسلمَ إذا سَألَه المَلَكانِ بعْد مَوتِه ودَفْنِه في القبر ، فإنَّه يَرُدُّ بالشَّهادتينِ : بالتَّوحيدِ للهِ ، وللنَّبيِّ محمَّد ﷺ بالرِّسالةِ ، فيكون ذلك سَببًا في نجاتِه ، وقد جاء في الرِّواياتِ أنَّه يُسألُ عن رَبِّه ، ودينه ، ورسوله الذي بُعث فيه ، فإذا أجاب العبدُ المؤمنُ بهذا الرَّدِّ ، كان كما قال اللهُ تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ فيُحقِّقُ اللهُ إيمانهم وأعمالهم بالقولِ الثَّابتِ ـ وهو شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ ـ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ .

---

(١) يُنظر : « تفسير السمرقندي » (٢/ ٢٤٢) .

(٢) حديث البطاقة : أخرجه أحمد (٦٩٩٤) ، والترمذي (٢٦٤١) ، وابن ماجه (٤٣٠٠) ، وابن حبان (٢٥٢٤) « موارد » ، و الحاكم ١/ ٦ ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

قال السعدي : يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين ، أي : الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام ، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها ، فيثبتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين ، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها . وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة ، وفي القبر عند سؤال الملكين ، للجواب الصحيح ، إذا قيل للميت « من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ » هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن : « الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيي »

﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة ، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم ، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه ، ونعيمه ، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة ، وصفتها ، ونعيم القبر وعذابه[١] .

فاسأل الله الثبات على الحق وعلى لا إله إلا الله حتى تلقاه سبحانه وتعالى وكان من دعاء النبي ﷺ : « **يا مُقلِّبَ القُلُوبِ ثبِّتْ قَلبي على دِينكَ** »[٢] .

ومن دعائه : « **ياوليَّ الإسلام وأهْلِهِ مسّكني بالإسلام حتَّى ألقْاكَ عَليهِ** »[٣] فألح على الله بهذه الأدعية وافعل أسباب الثبات والتي من أهمها بعد الدعاء طلب العلم والتفقه في الكتاب والسنة .

---

(١) « تفسير السعدي » ص(٤٢٥) .

(٢) الترمذي (٣٥١٧) ، وأحمد (٢٦٦٧٩) ، والطبراني في « الدعاء » (١٢٥٧ و١٢٥٨) ، وعبد بن حميد (١٥٣٤) ، من حديث أم سلمة رضي الله عنها ، وهو حديث صحيح .

(٣) الطبراني في « الأوسط » (٦٦١) ، وهو حديث صحيح ، كما قال الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٨٢٣) .

٧ ـ دعوة الحق هي لا إله إلا الله

والدليل قوله تعالى : ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ [الرعد : ٢٤] .

ومعناها الحصر أي له دعوة الحق لا لغيره ، وهي دعوة الحق ، وما سواها فهي دعوة الباطل .

قال الله جلَّ في علاه : ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « شهادة أن لا إله إلا الله » .

وقال قتادة قوله : ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾ قال : « لا إله إلا الله »[١] . وقد نقل ذلك الطبري .

وقال الطبري : وإنما عنى بالدعوة الحق توحيد الله وشهادةَ أن لا إله إلا الله[٢] .

وعن علي رضي الله عنه : « التوحيد » كما نقل ذلك البغوي[٣] .

وقال ابن زيد : ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾ لا إله إلا الله ليست تنبغي لأحدٍ غيره[٤] . وقيل : الدعاء بالإخلاص ، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله عز وجل .

وقال ابن كثير[٥] : قال علي بن أبى طالب ، رضي الله عنه : ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾ قال : التوحيد . رواه ابن جرير .

---

(١) « تفسير الطبري » (١٣/ ٤٨٦) .
(٢) « تفسير الطبري » (١٣/ ٤٨٥) .
(٣) « تفسير البغوي » (٤/ ٣٠٥) .
(٤) « تفسير الطبري » (١٣/ ٤٨٦) .
(٥) « تفسير ابن كثير » (٤/ ٤٤٥) .

وقال ابن عباس ، وقتادة ، ومالك عن محمد بن المنكدر : ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وقال ابن القيم : « إنه تعالى صاحب دعوة الحق ، لذاته وصفاته وهو أهلٌ أن يُعبد وحده ويُدعى وحده ، ويقصد ويشكر ويحمد ويحب ويرجى ويخاف ويتوكل عليه ويستعان به ويستجار به ويلجأ إليه فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده »[١] .

وقال السعدي أي : لله وحده ﴿ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ ﴾ وهي : عبادته وحده لا شريك له ، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى ، أي : هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والحب ، والرغبة ، والرهبة ، والإنابة ؛ لأن ألوهيته هي الحق ، وألوهية غيره باطلة ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله .

﴿ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم ﴾ أي : لمن يدعوها ويعبدها بشيء قليل ولا كثير ، لا من أمور الدنيا ، ولا من أمور الآخرة .

﴿ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ ﴾ الذي لا تناله كفاه لبعده ، ﴿ لِيَبۡلُغَ ﴾ ببسط كفيه إلى الماء ﴿ فَاهُ ﴾ فإنه عطشان ومن شدة عطشه يتناول بيده ، ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه ، فلا يصل إليه .

كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة ؛ لأنهم فقراء كما أن من دعوهم فقراء ، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير .

---

(١) « مدارج السالكين » (٢/ ٣١) .

﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ لبطلان ما يدعون من دون الله ، فبطلت عباداتهم ودعاؤهم ؛ لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها ، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين ، كانت عبادته حقًّا متصلة النفع لصاحبها في الدنيا والآخرة . وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة ؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال ، فكما أن هذا محال ، فالمشبه به محال ، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : ٤٠][1] .

❁ ❁ ❁

(١) « تفسير السعدي » ص(٤١٥) .

٨ ـ العهد : لا إله إلا الله

صاحبها كسب عهدًا نال به استحقاق الشفاعة للآخرين ، وإذن الله للآخرين بالشفاعة له .

والعهد هو الأمان والوصية ، فكأن من شهد بهذه الكلمة ، فله العهد والذمة ، حتى نال استحقاق الشفاعة للآخرين ، والدليل قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا * لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم ٨٥ ـ ٨٧] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما : « لما قالت اليهود ماقالت قال الله لمحمد ﷺ ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ [البقرة : ٨٠] يقول : أدخرتم عند الله عهدًا ، يقول : أقلتم : لا إله إلا الله ، لم تشركوا ، ولم تكفروا به ، فإن كنتم قلتموها فارجوا بها ، وإن كنتم لم تقولوها فلِمَ تقولون على الله ما لا تعلمون »[(١)] .

ويعني ابن عباس لما قالت اليهود : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة : ٨٠] .

قال ابن كثير[(٢)] : ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ [مريم : ٨٧] أي : ليس لهم من يشفع لهم ، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبرا عنهم : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٠٠ ـ ١٠١] ، وقوله : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم : ٨٧] : هذا استثناء منقطع ، بمعنى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها .

---

(١) « تفسير الطبري » (٢/ ١٧٧) .

(٢) « تفسير ابن كثير » (٥/ ٢٦٤) .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴾ قال : العهد : شهادة أن لا إله إلا الله ، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ، ولا يرجو إلا الله ، عز وجل .

وقال البغوي : ﴿ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴾ يعني لا إله إلا الله . وقيل : معناه لا يشفع الشافعون إلا لمن اتخذ عند الرحمن عهدًا يعني : المؤمنين كقوله : ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

وقيل : لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله أي لا يشفع إلا المؤمن ، فإنَّه والعهد هو الأمان والوصية ، فكأن من شهد بهذه الكلمة فله العهد والذمة ، حتى نال استحقاق الشفاعة للآخرين ، جاء عن ابن عباس رضي الله عنه ، عند تفسيره لآية : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴾ قوله : « العهد : شهادة أن لا إله إلا الله ، ويتبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله » .

قال اللهُ تعالى : ﴿ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴾ أي : ليس للكافرين من الشَّفاعةِ شيءٌ يوم القيامةِ ، فلا يشفعونَ لأحدٍ ، ولا يستحقُّون أن يشفعَ لهم أحدٌ ، وأمَّا من كان مُؤمِنًا بالله موحِّدًا ومُطيعًا له ؛ فإنَّه يشفعُ لِغَيرِه ، وينتفعُ بشفاعةِ غيرِه له[1] .

وقال الشنقيطي : « أي : لا يَملِكُ مِن جميعهم أحدٌ الشَّفاعةَ إلَّا من اتَّخذ عند الرَّحمنِ عَهدًا ، وهم المؤمنون ، والعهدُ : العملُ الصَّالِحُ ، والقَولُ بأنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ ، وغَيرُه مِن الأقوالِ يَدخُلُ في ذلك ، أي : إلَّا المؤمِنونَ فإنَّهم يَشفَعُ بعضُهم في

(١) « التفسير المحرر » سورة مريم ، (ص : ٢٩٢) .

بعضٍ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه ١٠٩] ، وقد بَيَّن تعالى في مواضِعَ أُخَرَ : أنَّ المعبوداتِ التي يَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ لا تَملِكُ الشَّفاعةَ ، وأنَّ مَن شَهِدَ بالحَقِّ يَملِكُها بإذنِ اللهِ له في ذلك ، وهو قَولُه تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف ٨٦] أي : لكِنْ مَن شَهِدَ بالحَقِّ يَشفَعُ بإذنِ اللهِ له في ذلك »[(١)] .

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال : قُلتُ : يا رَسولَ اللهِ ، مَن أسعَدُ النَّاسِ بشفاعتِك يومَ القيامةِ ؟ فقال : « **لقد ظَنَنتُ يا أبا هُرَيرةَ ألا يَسألَني عن هذا الحديثِ أحَدٌ أوَّلَ مِنك ؛ لِما رأيتُ مِن حِرْصِك على الحديثِ ؛ أسعَدُ النَّاسِ بشَفاعتي يومَ القيامةِ مَن قال : لا إلهَ إلا اللهُ ، خالِصًا مِن قِبَلِ نَفْسِه** »[(٢)] .

قال ابنُ القيِّم : « في قَولِه في حديثِ أبي هُرَيرةَ : « **أسعَدُ النَّاسِ بشَفاعتي مَن قال : لا إلهَ إلا اللهُ** » سِرٌّ من أسرارِ التَّوحيدِ ، وهو أنَّ الشَّفاعةَ إنَّما تُنالُ بتجريدِ التَّوحيدِ ، فمن كان أكمَلَ تَوحيدًا كان أَحرى بالشَّفاعةِ »[(٣)] .

فقلب كثيرٌ من الناس ذلك ، فبدل من أن يخلصوا التوحيد ويفردوا الله بالعبادة والدعاء ليكونوا أهلاً لشفاعة الشافعين ، عكسوا ذلك ، فصاروا يطلبون الشفاعة بالشرك بالله عزَّ وجلَّ ، وذلك بدعائهم للأموات والاستغاثة بهم ، وطلب الشفاعة منهم ، وذلك هو أعظم موانع الشفاعة ، فهو الشرك الأكبر قال عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) « أضواء البيان » (٣/ ٥١٦) .

(٢) البخاري (٩٩) و (٦٥٧٠) ، وأحمد ٢/ ٣٠٧ و٣٧٣ و٥١٨ ، والنسائي في « الكبرى » (٥٨٤٢) ، والحاكم ١/ ٧٠ .

(٣) « تهذيب السنن » (١٣/ ٥٦) .

لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢] .

وقال تعالى عمن يطلبون الشفاعة من الأموات : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨] .

والشفاعة شفاعتان : شفاعة منفيّة وشفاعة مثبَتة :

فالشفاعة المنفيّة : ما كانت تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلاّ الله ، والدليل : قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤] .

والشفاعة المثبَتة هي : التي تُطلب من الله ، والشّافع مُكْرَمٌ بالشفاعة ، والمشفوع له : من رضيَ اللهُ قوله وعمله بعد الإذن كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

فصار كثيرٌ من الناس يتمسكون بالشفاعة المنفية في القرآن فيطلبون الشفاعة من غير الله تعالى من الأموات وأصحاب القبور مع أنهم لايملكونها ، ولا يطلبونها ممن يملكها وهو الله عزَّ وجلَّ القائل : ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٤٤] ، والقائل سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ... ﴾ [البقرة : ١٨٦] والقائل جلَّ وعلا ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] .

٩ـ القول الصواب : لا إله إلا الله ، بل هي منتهى الصواب

والدليل قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨] .

قال الطبري : عن عليّ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ يقول : إلا من أذن له الربّ بشهادة أن لا إله إلا الله ، وهي منتهى الصواب .

عن أبي صالح في قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ قال : لا إله إلا الله .

عن عكرِمة في قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وقال آخرون : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ بالتوحيد ﴿وَقَالَ صَوَابًا ﴾ في الدنيا ، فوحَّد الله .

وعن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ قال : حقًّا في الدُّنيا وعمل به .

وقال ابن كثير : ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أي : حقًا ، ومن الحق : لا إله إلا الله .

وقال البغوي : ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ في الدنيا ، أي حقًّا . وقيل : قال : لا إله إلا الله .

ونأخذ من هذا الاسم أن على المسلم أن يحرص دائمًا على فعل الصواب والحق من الأقوال والأفعال وأن يحذر ما يخالف الصواب من الأخطاء القولية والفعلية في أمور الدين والدنيا وإذا حدث منه خطأ أن يبادر إلى التعلم والتصويب والتصحيح ، وأن يكون منهجه في هذه الحياة الصواب الذي أهمه و أعظمه لا إله إلا الله .

١٠ـ كلمة العدل لا إله إلا الله

بل هي أعدل العدل ، كما أن الشرك هو أظلم الظلم ، والدليل قول الله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

قال ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله .

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل ، وهو القسط والموازنة ، ويندب إلى الإحسان ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] ، وقال : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى : ٤٠] ، وقال : ﴿ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ ﴾ [المائدة : ٤٥] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا من شرعية العدل والندب إلى الفضل .

وقوله : ﴿ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [النحل : ٩٠] أي : يأمر بصلة الأرحام ، كما قال : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٦] .

وقوله : ﴿ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، فالفواحش : المحرمات . والمنكرات : ما ظهر منها من فاعلها ؛ ولهذا قيل في الموضع الآخر : ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ . وأما البغي فهو : العدوان على الناس .

وقد جاء في الحديث : « **مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعجِّلَ الله عُقوبته في الدُّنيا ، مع مَا يَدَّخِرُ لصَاحبه في الآخرةِ من البَغْي وقَطِيعةِ الرَّحِم** »[(١)] .

وقوله ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أي : يأمركم بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قال الشعبي ، عن شتير بن شكل : سمعت ابن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ الآية . رواه ابن جرير[(٢)] .

وفي رواية أن ابن مسعود قال عنها بأنها : أجمع آية للخير والشر وأكبر العدل القيام بالعبودية وتحقيق التوحيد ، وأعظم الظلم الشرك بالله واتخاذ العديل به والتنديد كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] ، قال البغوي أي : ثم الذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يعدلون أي : يشركون وأصله من مساواة الشيء بالشيء ، ومنه العدل ، أي : يعدلون بالله غير الله تعالى ، يقال : عدلت هذا بهذا إذا ساويته[(٣)] .

وقال السعدي في تفسير هذه الآية : فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده ، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده ، ويعامل الخلق بالعدل التام ، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته سواء في ذلك ولاية الإمامة

---

(١) أبو داود (٤٩٠٢) ، والترمذي (٢٥١١) ، وابن ماجه (٤٢١١) ، وأحمد (٢٠٣٧٤) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٢٩) ، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح .

(٢) « تفسير الطبري » (١٤/ ٣٣٧) .

(٣) « تفسير البغوي » (٣/ ١٢٦) .

الكبرى ، وولاية القضاء ونواب الخليفة ، ونواب القاضي . والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وأمرهم بسلوكه ، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات ، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقًّا ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم . فالعدل واجب ، والإحسان فضيلة مستحب وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم ، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره[١] .

وخصَّ الله إيتاء ذي القربى ـ وإن كان داخلًا في العموم ـ لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم ، والحرص على ذلك .

ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر .

وقوله : ﴿ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش .

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى .

وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض .

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها ، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات ، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به .

---

(١) « تفسير السعدي » ص(٤٤٧) .

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه . وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه ، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال ، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء .

ولهذا قال : ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي : بما بيّنه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرَّتكم .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه ، فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها .

واتقوا الله أيها المسلمون ، وكونوا قوامين بالقسط والعدل ، وحققوه في أنفسكم وأهليكم وما وليتم ، يكتب الله لكم العزَّ والتمكين ، والرفعةَ والسعادةَ في الدنيا والآخرة ، قال عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] .

وقد روى مسلم في « صحيحه » عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنَّ المُقسِطينَ عِندَ الله عَلَى مَنابِرَ مِنْ نُورٍ ، عَنْ يَمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ ، وكِلْتا يَديهِ يَمِينٌ ، الَّذِينَ يَعدِلُونَ في حُكْمِهِمْ وأَهْلِيهِمْ ومَا وَلُوا** »[1] .

فالزم أيها المسلم العدل واعدل في أسرتك وبين أولادك وبين القريب والبعيد واعدل في سائر أمورك واجتنب الجور والظلم تفلح .

---

(١) مسلم (١٨٢٧) .

١١ـ القول السديد لا إله إلا الله

وليس في الوجود قول أعظم سداداً من لا إله إلا الله ، والدليل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا * يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٧٠ ـ ٧١] .

قال الطبري : عن الحكم بن أبان عن عكرمة في قول الله : ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ قولوا : لا إله إلا الله .

وقال البغوي : قال عكرمة هو : قول لا إله إلا الله .

وقال السيوطي في الدر المنثور في « التفسير بالمأثور » : وأخرج البيهقي في « الأسماء والصفات » من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ قال : قولوا لا إله إلا الله ...

وقال ابن كثير : يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا قولا سديدًا أي : مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف .

ثم قال ابن كثير : قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله .

وقال غيره : السديد : الصدق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال غيره : هو الصواب .

والكل حق .

ولا مانع أن يشمل اللفظ ما يدخل تحته من معانٍ أخرى ؛ لأن الاختلاف في التفسير ينقسم إلى اختلاف تنوع يمكن الجمع فيه بين الأقوال ، واختلاف تضاد

يتعذر معها الجمع ، وأن الغالب في اختلاف السلف اختلاف التنوع لا التضاد ، وكان من أوسع أسباب اختلافهم في التفسير هو احتمال العموم أو الخصوص في الآية .

ولا شك أنَّ أعلى وأفضل القول السديد هو قول لا إله إلا الله ، ويدخل فيه كل قول طيب وكلام صواب .

ولذلك قال السعدي في تفسير : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ .

يأمر تعالى المؤمنين بتقواه ، في جميع أحوالهم ، في السر والعلانية ، ويخص منها ، ويندب للقول السديد ، وهو القول الموافق للصواب ، أو المقارب له ، عند تعذر اليقين ، من قراءة ، وذكر ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وتعلم علم وتعليمه ، والحرص على إصابة الصواب ، في المسائل العلمية ، وسلوك كل طريق يوصل لذلك ، وكل وسيلة تعين عليه .

ومن القول السديد ، لين الكلام ولطفه ، في مخاطبة الأنام ، والقول المتضمن للنصح والإشارة ، بما هو الأصلح .

وقال ابن عثيمين : قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا * يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ ﴾ .

أمَر اللهُ تعالى بأمرَيْن ؛ بتقوى الله ، وأنْ يقولَ الإنسانُ قولًا سديدًا ؛ أي صَوابًا . والتَّقوى : فِعلُ أوامر اللهِ ، واجتِنابُ نَواهِيه .

أمَّا القَولُ السَّديد ؛ فهُو القَول الصَّواب وهُو يَشملُ كلَّ قَول فِيه خَيرٌ ، سواءٌ كان مِن ذِكْر اللهِ ، أو مِن طَلَب العِلم ، أو مِن الأَمْر بالمَعْروف والنَّهي عَنِ المُنكَر ، أو مِن الكَلامِ الحسَن الذِي يَستجلِب بِه الإنسان مَودَّة النَّاس ومحبَّتهم ، أو غَيْر ذَلِك ، ويَجمعهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ : « **مَنْ كَانَ يُؤمنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُل خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ** »[1] وضِدُّ ذَلِك : القَولُ غَيرُ السَّديد ؛ وهُو القولُ الذِي ليسَ بصَوابٍ ، بَل خَطأٌ إمَّا فِي مَوضُوعِه وإمَّا فِي مَحَلِّه .

قلتُ : فإذا كانت لا إله إلا الله هي أعظم القول السديد ، فإن ضدها هو القول غير السديد ، وأشده سؤاً وبعداً عن السداد هو ما ناقض شهادة أن لا إله إلا الله ، ونافاها مما فيه الشرك بالله عز وجل ، كدعاء غير الله من الأموات أو الاستغاثة بهم .

قال السيوطي : وأخرج أحمد في « الزهد » وأبو داود في « المراسيل » ، عن عروة رضي الله عنه قال : أكثر ما كان رسول الله ﷺ على المنبر يقول ﴿ **ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا** ﴾ .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما قام رسول الله ﷺ على المنبر إلا سمعته يقول ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا** ﴾[2] .

وهذه الآية كان يقرأها في خطبة الحاجة عليه الصلاة والسلام .

---

(١) البخاري (٦٠١٨) وفي مواضع أخر ، ومسلم (٤٧) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) « الدر المنثور » للسيوطي (٨/ ٢١٨) .

١٢ـ الصدق : لا إله إلا الله هي أصدق الكلام

وهي أصدق الصدق ، فلا إله إلا الله هي الصدق ، ومن شروطها الصدق المنافي للكذب أن يقولها صدقًا من قلبه .

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣] . والصدق هنا لا إله إلا الله .

وقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : ١١٩] ، قال الضَّحَّاكُ : عنِ ابنِ عبَّاسٍ يقولُ : يوم ينفع الموحِّدين توحيدهم(١) .

وقال ابن كثير : عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ قال : من جاء بلا إله إلا الله ، ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦ ﴾ يعني : رسول الله ﷺ .

قال البغوي : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ يعني رسول الله ﷺ جاء بلا إله إلا الله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦ ﴾ الرسول أيضًا بلغه إلى الخلق .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ يقول : اتقوا الشرك .

وقال الطبري : قالوا : والصدق الذي جاء به : لا إله إلا الله ، والذي صدق به أيضًا هو رسول الله ﷺ .

وقال : حدَّثني علي بسنده عن ابن عباس قوله : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ يقول : من جاء بلا إله إلا الله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦ ﴾ يعني : رسوله .

---

(١) أورد هذا الأثر : ابن أبي حاتم وابن جرير وابن كثير .

وهذا يعم كل رسول دعا إلى (لا إله إلا الله) الذي هو الصدق ، ويعم كل من آمن بالرسل واتبعهم وصدقهم فيما دعوا إليه وانقاد للشرع الذي بعثوا به ودعا إلى التوحيد كما دعوا .

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية : ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ : يوم ينفعُ المُوحِّدين توحيدهم .

ولأنَّ لا إله إلا الله كلمة الصدق يصدق الله سبحانه وتعالى عبده المؤمن إذا قالها ، كما دلَّ عليه قول الصادق المصدوق ﷺ : « **إذا قال العبد : لا إلهَ إلا الله والله أكبرُ ، صَدَّقهُ ربُّهُ ، قال : صَدَقَ عَبْدِي ، لا إلهَ إلا أنا ، وأنا أكبرُ ...** »[1] .

واحرص أيها المسلم على أن تنال مرتبة الصديقية وتكون من الصديقين بإيمانك الصادق وإيقانك الثابت ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد : ١٩] .

قال البغوي : والصديق : الكثير الصدق ، قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسوله فهو صديق وتلا هذه الآية .

وقال السعدي : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ ﴾ والإيمان عند أهل السنة : هو ما دلَّ عليه الكتاب والسنَّة ، هو قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة ، فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون أي : الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ، ودون مرتبة

---

(١) الترمذي (٣٤٣٠) ، وابن ماجه (٣٧٩٤) ، والنسائي في « الكبرى » (٩٧٧٤) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح .

الأنبياء . ثم قال : والصديقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح ، والعلم النافع ، واليقين الصادق .

وكونوا ياعباد الله من الصديقين ومع الصادقين ، ومنهم دائمًا في أقوالكم وأفعالكم وشهاداتكم وسائر شؤونكم ، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] ، قال ابن كثير : ولهذا قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي : اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجًا من أموركم ، ومخرجًا ، وقد قال الإمام أحمد : حدَّثنا أبو معاوية ، حدَّثنا الأعمش عن شقيق ؛ عن عبد الله ، هو ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **عليكم بالصدق ؛ فإنَّ الصدق يَهدِي إلى البرِّ ، وإنَّ البرَّ يَهْدِي إلى الجنَّةِ ، وما يَزالُ الرَّجُل يَصْدق ويتحرَّى الصدق حتَّى يُكتب عند الله صدِّيقًا ، وإيَّاكُم والكَذِبَ ، فإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّارِ ، وما يزالُ الرَّجلُ يكَذِبُ ويتحرَّى الكَذِبَ ، حتَّى يُكتبَ عِندَ الله كذَّابًا** » أخرجاه في « الصحيحين »[(١)] .

وقال عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه : « إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ـ هكذا قرأها ـ ثم قال : فهل تجدون لأحد فيه رخصة[(٢)] .

وعن عبد الله بن عمر : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ مع محمد ﷺ وأصحابه .

---

(١) البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٢) أحمد (٣٨٩٦) .

و قال السعدي[١] : أي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ باللّه ، وبما أمر اللّه بالإيمان به ، قوموا بما يقتضيه الإيمان ، وهو القيام بتقوى اللّه تعالى ، باجتناب ما نهى اللّه عنه والبعد عنه .

﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، الذين أقوالهم صدق ، وأعمالهم ، وأحوالهم لا تكون إلا صدقا خلية من الكسل والفتور ، سالمة من المقاصد السيئة ، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة . قال الله تعالى : ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ الآية .

وقال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز في موقع سماحته : هذا تفسيرٌ للصِّدق ببعض معناه ، وهو عامٌّ ، يقول الله هذا يومُ ، يعني : يوم القيامة ينفع الصَّادقين صدقهم : صدقهم في عبادة ربهم ، وفي طاعته ، وصدقهم في ترك معصيته ، وصدقهم في جهاد أعدائه ، وصدقهم في مُوالاة أوليائه ... ، إلى غير هذا ، الآية عامّة ... صدقٌ في اللِّسان ، وصدقٌ في الفعل ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] يعني : في أقوالهم وأعمالهم ، الصدق في القول معلومٌ ، ويكون ما يُطابق الواقع ، والصدق في العمل كونه ينصح في العمل ؛ يُؤدّيه كما ينبغي ، يقول ابنُ القيم رحمه الله في هذا :

والصدق توحيد الإرادة وبذل ... الجهد لا كسل ولا متواني

فالمقصود أنَّ الصدق هو أن تُؤدي الأعمال في غاية الإتقان : في إخلاصها لله وحده ، وعدم الشِّرك به ، كله ، دقيقه وجليله ، وفي أدائها على الوجه الشَّرعي

(١) « تفسير السعدي » ص(٣٥٥) .

المطابق للشَّريعة ، ليس فيها بدعة ، ولا مخالفة ، في غايةٍ من الخشوع والإقبال على الله والضَّراعة إليه ، وإكمال ما شرع فيها من العمل ، هكذا يكون الصَّادق ، والصَّادق هو الذي وحَّد الله ، والصَّادق هو الذي أدَّى العبادة كما شرع الله ، والصَّادق هو الذي أدَّاها كاملةً تامَّةً وافرةً كما شرع الله جلَّ وعلا في خشوعه ، وفي إخلاصه ، وفي تطبيقه لها على الوجه الشَّرعي : في صلاته ، في زكاته ، في صومه ، في جهاده ، في حجِّه ، في برِّه للوالدين ، وفي إكرامه لجيرانه ، وفي محبَّته لله ، وبُغضه لله ، في مُوالاته لله ، وفي مُعاداته لله ، في كل شيءٍ من أمور الدِّين ؛ في صدقه في ترك المحارم والبُعد عن وسائلها ، هكذا يكون الصِّدق : هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، دلَّ على أنه صدقٌ كاملٌ بالإخلاص والمتابعة حتى يصل بهم الجنات والكرامات ، نسأل الله أن يجعلنا وإيَّاكم منهم .



١٣ـ كلمة الحق لا إله إلا الله

وهي بلا شك شهادة الحق ، قال ابن عباس : إلا من شهد بالحق ، أي : شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

وقال البغوي : هي لا إله إلا الله .

وقال الطبري : وهم الذين يشهدون شهادة الحق .

فيوحدون الله ، ويخلصون له الوحدانية ، والدليل قوله تعالى ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٦] .

قال البغوي : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وأراد بشهادة الحق قوله لا إله إلا الله كلمة التوحيد ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم .

قال الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالى ذكره أخبر أنه لا يملك الذين يعبدهم المشركون من دون الله الشفاعة عنده لأحد ، إلا من شهد بالحقّ ، وشهادته بالحق : هو إقراره بتوحيد الله ، يعني بذلك : إلا من آمن بالله ، وهم يعلمون حقيقة توحيده ، ولم يخصص بأن الذي لا يملك ملك الشفاعة منهم بعض من كان يعبد من دون الله ، فذلك على جميع من كان تعبد قريش من دون الله يوم نزلت هذه الآية وغيرهم ، وقد كان فيهم من يعبد من دون الله الآلهة ، وكان فيهم من يعبد من دونه الملائكة وغيرهم ، فجميع أولئك داخلون في قوله : ولا يملك الذين يدعو قريش وسائر العرب من دون الله الشفاعة عند الله .

ثم استثنى جلَّ ثناؤه بقوله : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾وهم الذين يشهدون شهادة الحقّ فيوحِّدون الله ، ويخلصون له الوحدانية ، على علم منهم ويقين بذلك ، أنهم يملكون الشفاعة عنده بإذنه لهم بها ، كما قال جلَّ ثناؤه : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ فأثبت جلَّ ثناؤه للملائكة وعيسى وعُزير ملكهم من الشفاعة ما نفاه عن الآلهة والأوثان باستثنائه الذي استثناه .

وقال القرطبي ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني المؤمنين إذا أذن لهم . قال ابن عباس : إلا من شهد بالحق أي : شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله[١] .

وقال محيي الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الإيجي (ت : ٩٠٥هـ تقريبًا) رحمه الله : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ : بالتوحيد ، وهم يعلمون ، حقيقة ما شهدوا به ولا يكونون منافقين[٢] .

وقال الشوكاني في « فتح القدير » : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ أي : لا يملك من يدعونه من دون الله من الأصنام ، ونحوها الشفاعة عند الله كما يزعمون أنهم يشفعون لهم . قرأ الجمهور ﴿ يَدْعُونَ ﴾ بالتحتية ، وقرأ السلمي ، وابن وثاب بالفوقية ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : التوحيد ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : هم على علم ، وبصيرة بما شهدوا به ، والاستثناء يحتمل أن يكون متصلاً ، والمعنى : إلا من شهد بالحق ، وهم : المسيح ، وعزير ، والملائكة ، فإنهم يملكون الشفاعة لمن يستحقها . وقيل : هو منقطع ، والمعنى : لكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء ، ويجوز أن يكون المستثنى منه محذوفًا ، أي : لا يملكون الشفاعة في أحد

(١) « تفسير القرطبي » (١٦/ ١٢٢) .
(٢) « تفسير جامع البيان » للإيجي ، (٤/ ٩٦) .

إلا فيمن شهد بالحق . قال سعيد بن جبير ، وغيره : معنى الآية : أنه لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق ، وآمن على علم ، وبصيرة . وقال قتادة : لا يشفعون لعابديها ، بل يشفعون لمن شهد بالوحدانية[١] .

وقال الشيخ صالح الفوزان : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ قال : لا إله إلا الله ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ معناها أما من يقولها وهو لا يعلم معناها ، فهذا لافائدة له من قولها .

و قال السعدي : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ أي : كل من دعي من دون اللّه ، من الأنبياء والملائكة وغيرهم ، لا يملكون الشفاعة ، ولا يشفعون إلا بإذن اللّه ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي : نطق بلسانه ، مقرًا بقلبه ، عالمًا بما شهد به ، ويشترط أن تكون شهادته بالحق ، وهو الشهادة للّه تعالى بالوحدانية ، ولرسله بالنبوة والرسالة ، وصحة ما جاءوا به ، من أصول الدين وفروعه ، وحقائقه وشرائعه ، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين ، وهؤلاء الناجون من عذاب اللّه ، الحائزون لثوابه[٢] .

وقال ابن عاشور[٣] : لما أنبأهم أن لله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وعنده علمُ الساعة ، أعلمهم أن ما يعبدونه من دون الله لا يقدرُ على أن يشفعَ لهم في الدُّنيا ، إبطالاً لزعمهم أنهم شفعاؤهم عند الله . ولما كان من جُملة من عَبدوا دون الله الملائكة استثناهم بقوله : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي فهم يشفعون ،

---

(١) « فتح القدير » للشوكاني (٤/ ٦٤٩) .

(٢) « تفسير السعدي » ص(٧٧٠) .

(٣) « تفسير التحرير والتنوير » (٢٥/ ٢٧٠) .

وهذا في معنى قوله : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦] ثم قال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ وقد مضى في سورة الأنبياء .

ووصف الشفعاء بأنهم شَهِدوا بالحقِّ وهم يعلمون أي وهم يعلمون حال من يستحقُّ الشفاعة . فقد علم أنهم لا يشفعون للذين خالف حالهم حالَ من يشهدُ لله بالحقِّ .

قال مجاهد : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ : كلمة الإخلاص .

﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ : أن الله حق لأن معنى لا إله إلا الله : لا معبود بحق إلا الله ، وخبر « لا » محذوف لأنه معلوم لدى السامع ، ولا يمكن تقديره بـ « موجود » ، لأن المشركين لم ينازعوا في وجود إله مع الله عزَّ وجلَّ ، وإنما نازعوا في أحقية الله سبحانه بالعبادة دون غيره ، ولذلك قرن تعالى بين أحقيته للعبادة ، وبطلان عبادة ما سواه في قوله تبارك وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج : ٦٢] الآية .

وهكذا فإنَّ المؤمن يشهد بالحق وهي شهادة الحق ، شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله ، يعتقد ذلك ويعمل بمقتضاه توحيداً لله وطاعةً وإخلاصًا وإيمانًا برسول الله محمد بن عبدالله خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وطاعةً له واتباعًا لسنته ، واقتفاءً لأثره وهديه الكريم ، ويكون دائمًا مع الحق وأهل الحق في جميع الأمور وسائر شؤون الحياة ، ولايشهد شهادةً عند القاضي أو عند غيره إلا بالحق ، وبما شاهده وتيقن منه ، ولايجوز له أن يشهد شهادة الزور ، فهي من أكبر الكبائر .

ولايجوز أيضًا أن يكتم الشهادة ، قال تعالى ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن كثير ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ أي : لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها .

قال ابن عباس وغيره : شهادة الزور من أكبر الكبائر ، وكتمانها كذلك . ولهذا قال : ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ قال السدي : يعني : فاجر قلبه ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴾ [المائدة : ١٠٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] .



١٤ـ الحسنة : لا إله إلا الله

بل هي أحسن الحسنات وأفضلها وماحية السيئات ، كما ثبت في السنَّة ، و لا حُسن أحسن من كلمة التوحيد وما دلَّت عليه ، والدليل قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

قال الطبري : عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ قال رجل من القوم : فإنَّ لا إله إلا الله حسنة ؟ قال : نعم ، أفضل الحسنات[١] .

عن الأسود بن هلال ، عن عبد الله : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ لا إله إلا الله .

عن الأسود بن هلال ، عن عبد الله قال : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ قال : من جاء بلا إله إلا الله . قال : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ ، قال : الشرك .

عن عاصم ، عن شقيق : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ ، قال : لا إله إلا الله ، كلمة الإخلاص ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ ، قال : الشرك .

قال زين العابدين علي بن الحسين : هي لا إله إلا الله .

وعن عثمان بن الأسود ، عن مجاهد والقاسم بن أبي بزة : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ قالوا : لا إله إلا الله ، كلمة الإخلاص ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ ، قالوا : بالشرك وبالكفر .

عن عبد الملك ، عن عطاء : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ ، قال : لا إله إلا الله ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ ، قال : الشرك .

---

(١) « تفسير الطبري » (١٠/ ٣٨) .

عن محمد بن كعب : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ ، قال : لا إله إلا الله .

عن أبي المحجل ، عن أبي معشر قال : كان إبراهيم يحلف بالله ما يستثني : أنّ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ ، لا إله إلا الله ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ من جاء بالشرك .

عن الحسن : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وعن سالم ، عن سعيد ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وقال ابن كثير : قال ابن مسعود : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ من جاء بـ « لا إله إلا الله » ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾يقول : بالشرك . وهكذا ورد عن جماعة من السلف وقد أوردها الطبري في « تفسيره » .

وعن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ ، يقول : من جاء بلا إله إلا الله ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾، قال : الشرك .

وجاء في « الدر المنثور »[1] ، قال حذيفة : « من جاء بلا إله إلا الله وجبت له الجنة ، ومن جاء بالشرك وجبت له النار » .

و« الـ » في الحسنة للعهد لا للجنس ، أي : الحسنة المعهودة المعينة وهي لا إله إلا الله ، و« من » في قوله : ﴿ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ [النمل : ٨٩] سببية ، أي فله خير وثواب بسببها ف «خير» هنا هو ما يقابل الشر ، لأنه لا شيء خير من لا إله إلا الله ، قال الحسن في تفسيرها : « من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير » .

وقال القرطبي : والحسنة هنا : الإيمان . أي من جاء بشهادة أن لا إله إلا الله فله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب .

---

(١) « الدر المنثور » للسيوطي (٦/ ٣٤٥) .

ومن جاء بالسيئة يعني الشرك فلا يجزى إلا مثلها وهو الخلود في النار ؛ لأن الشرك أعظم الذنوب ، والنار أعظم العقوبة فذلك قوله تعالى : ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ يعني جزاء وافق العمل . وأما الحسنة فبخلاف ذلك ؛ لنص الله تعالى على ذلك .

وفي الخبر الحسنة بعشر أمثالها وأزيد ، والسيئة واحدة وأغفر ، فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره .

وروى الأعمش عن أبي صالح قال : الحسنة لا إله إلا الله ، والسيئة الشرك ، وهم لا يظلمون أي لا ينقص ثواب أعمالهم . وقد مضى في (البقرة) بيان هذه الآية ، وأنها مخالفة للإنفاق في سبيل الله ؛ ولهذا قال بعض العلماء : العشر لسائر الحسنات ؛ والسبعمائة للنفقة في سبيل الله ، والخاص والعام فيه سواء أصح ؛ لحديث خريم بن فاتك عن النبي ﷺ وفيه : « **وأمَّا حسنة بعشر ، فمَنْ عَمِلَ حَسنةً فَلهُ عشر أمْثَالها ، وأما حَسنة بسبعمائة فالنَّفقة في سَبيلِ الله** »[١] .

وقال البغوي : قال ابن عمر : الآية في غير الصدقات من الحسنات ، فأما الصدقات تضاعف سبعمائة ضعف[٢] .

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله أوصني فقال ﷺ : « **إذا عَمِلْتَ سيئةً فأتبِعْهَا حسنةً تَمحُهَا** » قالَ : قلتُ يا رسول الله أمِنَ الحسَناتِ لا إلهَ إلَّا اللهُ ؟ قالَ : « **هيَ أفضَلُ الحسَناتِ** » وفي أحد الروايات قال : « **هِيَ أحْسَنُ الحَسَناتِ** »[٣] .

---

(١) أحمد (١٨٩٠٠) ، والحاكم (٣/ ٦٢٢) ، وهو حديث حسن .

(٢) « تفسير البغوي » (٣/ ٢١١) .

(٣) أحمد (٢١٤٨٧) ، وإسناده صحيح .

ولا إله إلا الله ، هي أعظم الذكر وأفضله ، وبها تُمحى السيئات ، كما أن الاستغفار ممحاة للسيئات ، فإنَّ لا إله إلا الله أعظم محواً للسيئات ، وتكفيراً للخطيئات ، فأكثر من ترديدها فهي أفضل الذِّكر ، واستكثر أيها المسلم من الحسنات والأعمال الصالحة ، فإنَّ العبد يوم القيامة يبحث عن الحسنة الواحدة ليرجح بها ميزانه ، وينجو قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود : ١١٤] .

وقال رسول الله ﷺ قال : « **اتَّقِ الله حَيْثُما كُنْتَ ، وأتبع السَّيِّئةَ الحَسَنةَ تَمْحُهَا ، وخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَن** »[1] رواه الترمذي وقال : حديث حسن .



(١) الترمذي (١٩٨٨) ، وأحمد (٢١٣٥٤) ، والحديث حسن ، كما قال الألباني في « صحيح الترغيب » (٣١٦٠) .

١٥ـ الكلمة الباقية : هي لا إله إلا الله

وهي الباقية في عقب إبراهيم عليه الصلاة والسلام وذريته ، هذه الخصلة الحميدة التي هي أم الخصال وأساسها ، وهي إخلاص العبادة للّه وحده ، والتبرِّي من عبادة ما سواه ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦ ـ ٢٨] .

قال الطبري : عن مجاهد ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وعن قتادة ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، والتوحيد لم يزل في ذريته من يقولها من بعده .

وعن قتادة ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ قال : التوحيد والإخلاص ، ولا يزال في ذريّته من يوحِّد الله ويعبده .

وعن السديّ ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ قال : لا إله إلا الله . وقال آخرون : الكلمة التي جعلها الله في عقبه اسم الإسلام .

وقال ابن كثير : فقال : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ أي : هذه الكلمة ، وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان ، وهي لا إله إلا الله ، أي : جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي : إليها .

وقال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾يعني : لا إله إلا الله ، لا يزال في ذريته من

يقولها . وروي نحوه عن ابن عباس . وقال ابن زيد : كلمة الإسلام . وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة .

وقال البغوي : قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ ﴾ أي بريء ﴿ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ خلقني ﴿ فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ يرشدني لدينه .

﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ يعني هذه الكلمة ، ﴿ كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ قال مجاهد وقتادة : يعني كلمة التوحيد وهي « لا إله إلا الله » كلمة باقية في عقبه في ذريته . قال قتادة : لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده . وقال القرظي : يعني : وجعل وصية إبراهيم التي أوصى بها بنيه باقية في نسله وذريته ، وهو قوله عز وجل : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين ويرجعون عما هم عليه إلى دين إبراهيم . وقال السدي : لعلهم يتوبون ويرجعون إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ .

وقال ابن القيِّم : « الحمد لله : أي : جعل هذه الموالاة الله ، والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة : لا إله إلا الله ، وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة »[١] .

و قال السعدي[٢] ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أي : هذه الخصلة الحميدة ، التي هي أم الخصال وأساسها ، وهي إخلاص العبادة للّه وحده ، والتبرِّي من عبادة ما سواه .

﴿ كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ أي : ذريته ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ إليها ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ لشهرتها عنه ، وتوصيته لذريته ، وتوصية بعض بنيه ـ كإسحاق ويعقوب ـ لبعض ، كما قال

(١) « الجواب الكافي » ص(١٩٥) .
(٢) « تفسير السعدي » ص(٧٦٤) .

عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٠ ـ ١٣٣] .

فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام ، حتى دخلهم الترف والطغيان . وهكذا كما جاء في هذه الآيات وصى ابراهيم بنيه ويعقوب بهذا التوحيد وأن لا إله إلا الله ، وبهذه الكلمة العظيمة والملة الحنيفية ، وقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام داعيًا ربه أن يجنبه وبنيه الشرك الذي هو مناقض ومضاد للتوحيد ن وللا إله إلا الله ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥]

قال إبراهيم التيمي : « ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم » وقال بعده ابنه يعقوب لبنيه ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وهكذا فإنه يجب علينا جميعًا نحن المسلمين أتباع الملة الحنيفية أن نتواصى دائمًا فيما بيننا بلا إله إلا الله ، ونحرص على بقاء هذه الكلمة فينا ، وقوة هذه العقيدة العظيمة في نفوسنا ونفوس أهلنا وأجيالنا ، وأن ندعو الناس إليها ونربيهم عليها ، ونسأل الله الثبات عليها ، ونكثر من تدارس التوحيد وعقيدة السلف الصالح أهل السنَّة والجماعة ، وأن يركز أئمة المساجد والخطباء والدُّعاة على تعليم الناس

التوحيد وأصول العقيدة ، وتحذيرهم من الشرك والبدع والمعاصي ، وأن نجتهد في الحذر من الشرك الذي حذَّر الله منه أنبياءه وصفوته من عباده ، فقد أثنى الله عزَّ وجلَّ في سورة الأنعام على (١٨) نبيًا في سياق متصل وختم ثناءه عليهم بقوله : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨] مع عصمتهم من الشرك وكبائر الإثم وقال لخاتمهم وأفضلهم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] .

فلا مجاملة لأحدٍ في التوحيد ، وقد قال رسول الله ﷺ : « **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** »[(١)] فإذا كان الشرك الأصغر مخوفًا على أصحاب رسول الله ﷺ مع كمال علمهم وقوة إيمانهم فكيف لايخافه ومافوقه من الشرك الأكبر من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب ؟!



(١) أحمد (٢٣٦٣٠) ، من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه ، وحسَّن إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط رحمه الله تعالى في تعليقه على « المسند » .

١٦ـ الحسنى هي لا إله إلا الله :

والدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥ ـ ٧] .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ .

قال الطبري : عن أبي عبد الرحمن ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ قال : بلا إله إلا الله .

وعن ابن عباس ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ يقول : صدّقَ بلا إله إلا الله .

وقال ابن كثير : قال أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي : بلا إله إلا الله .

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وكَذَّبَ بلا إله إلا الله .

فـ « لا إله إلا الله » هي الكلمة الحسنى مفرد يأتي بكل جمع ؛ لأن التصديق الحقيقي بها يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها ، وجميع أصول الدِّين وفروعه من شعب هذه الكلمة ، كأركان الإيمان الستة ، وأركان الإسلام الخمسة ، والتصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها ، وهي شرائع الإسلام التي تفصّل هذه الكلمة .

والتصديق بالحسنى تصديق بالإيمان وجزائه الأخروي وأعلاه الجنة والدنيوي وهي الخلف على من أعطى وبذل لوجه الله تعالى ، فلا إله إلا الله هي الإيمان والإيمان : اعتقادٌ بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية كما عرفه أهل السنَّة والجماعة وكلمة التوحيد ، هي الحسنى وسر وصفها

بهذا الوصف "الحسنى"هو حسنها في ذاتها وفي معناها وهداياتها ، وحسنها في مآلها وآثارها وبركاتها والحسُن كله فيها ، وفيما دلت عليه فهي كاملة الحسن والجمال .

كما قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « فنَفى أنْ يكون دينٌ أحسن من هذا الدين وأنكر على مَن أثبت دينًا أحسن منه لأن هذا استفهام إنكار وهو إنكار نهي وذم لمَن جعل دينًا أحسن من هذا »[١] .

ولاشك أن هذا الدين قائمٌ على شهادة أن لا إله إلا الله ، فلا أحسن منها ولا من هذا الدِّين الإسلامي العظيم القائم عليها وهي أصله وأسّه .

وقال ابن كثير : قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ أخلص العمل لربه ، عز وجل ، فعمل إيمانًا واحتسابًا ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي : اتبع في عمله ما شرعه الله له ، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق ، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما ، أي : يكون خالصًا صوابًا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون متبعًا للشريعة والسنة فيصح ظاهره بالمتابعة ، وباطنه بالإخلاص ، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد[٢] .

ولا إله إلا الله كلها حسن ومحاسن ، والإسلام دينٌ كله محاسن ، توحيداً وعقيدةً وشريعةً وأخلاقًا وآدابًا ، ومن دلائل حسن التوحيد وحسن لا إله إلا الله التي

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١٤/ ٤٢٦) .

(٢) « تفسير ابن كثير » (٢/ ٤٢٢) .

تضمنته ودلَّت عليه : أنه تنزيهٌ لله تعالى عن المسبة ، ومن قبح الشرك كونه مسبة لله عز وجل ، فلا حُسن أحسن من كلمة التوحيد لا إله إلا الله ، التي هي أحب كلمةٍ إلى الله قد تضمنت وهدت ودلَّت على أعظم وأفضل حقٍ لله تعالى على عباده ، وهو التوحيد وإفراده سبحانه بالعبادة الذي ما خلق سبحانه وتعالى السماوات والأرض ولا خلق الجنة والنار والجن والإنس وجميع الخلق وما أرسل الرسل ولا أنزل الكتب إلا من أجله فالتوحيد سرّ الخلق وحكمة الوجود .



١٧ـ كلمة الله العليا : لا إله إلا الله

فهي كلمة الله العليا التي لا أعلى منها ، ومن قالها صدقًا من قلبه ، واعتقدها وتمسك بها ، ودعا إليها ونصرها ، أعلى الله شأنه و مقامه في الدُّنيا والآخرة ، وصار مكرمًا محترمًا معصوم الدم والعرض والمال ، والدليل عليها قوله عز وجل : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وكلمة الله هي العليا : قال ابن عباس : هي قول لا إله إلا الله . قال عز وجل : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ .

قال الطبري : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ، وهي كلمة الشرك ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾ ، لأنها قُهِرَت وأذِلَّت ، وأبطلها الله تعالى ، ومحق أهلها ، وكل مقهور ومغلوب فهو أسفل من الغالب ، والغالب هو الأعلى ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ ، يقول : ودين الله وتوحيده وقولُ لا إله إلا الله ، وهي كلمتُه ﴿ ٱلْعُلْيَا ﴾ على الشرك وأهله ، الغالبةُ ، عن علي ، عن ابن عباس قوله : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ﴾ ، وهي : الشرك بالله ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ وهي : لا إله إلا الله[١] .

---

(١) « تفسير الطبري » (١١/ ٤٦٧) .

وقال البغوي : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وكلمتهم الشرك ، وهي السفلى إلى يوم القيامة ، ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ﴾ إلى يوم القيامة ، قال ابن عباس : هي قول لا إله إلا الله[١] .

وقل ابن كثير[٢] : قال ابن عباس : يعني ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الشرك . و ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ ﴾ هي : لا إله إلا الله .

قال النبي ﷺ : « **الإيمان بضعٌ وسبعون شعبةً أعلاها قولُ لا إله إلا الله ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق** »[٣] .

وفي « الصحيحين » عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « **مَنْ قَاتَلَ لتكُونَ كَلِمةُ الله هِيَ العُلْيا ، فَهُوَ في سَبيلِ الله** »[٤] .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي : في انتقامه وانتصاره ، منيع الجناب ، لا يضام من لاذ ببابه ، واحتمى بالتمسك بخطابه ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أقواله وأفعاله .

وقال الطِّيبي : « أفضَلُ الذِّكرِ : قَولُ لا إلهَ إلَّا اللهُ ، وهي الكَلِمةُ العُلْيا ، وهي القُطبُ الذي يدورُ عليها رحى الإسلامِ ، وهي القاعِدةُ التي بُنِيَ عليها أركانُ الدِّينِ »[٥] .

---

(١) « تفسير البغوي » (٤/ ٥٣) .

(٢) « تفسير ابن كثير » (٤/ ١٥٥) .

(٣) مسلم (٥٨) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) البخاري (١٢٣) وفي أبواب أخرى ، ومسلم (١٩٠٤) .

(٥) ينظر : « الكاشف عن حقائق السنن » لشرف الدين بن الحسين الطيبي (٥/ ١٧٣٣) .

فلا إله إلا الله هي كلمة الله العليا وهي عليا على الدوام ، ولذلك لم يعطفها على ما قبلها ﴿ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ، ما قال : وجعل كلمة الله العليا ، حتى لا تكون مفعولاً للجعل أو معطوفة على كلمة الذين كفروا ، لكن استأنف كلامًا جديدًا فقال : ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ﴾ كلمة الله مبتدأ وجملة هي العليا خبرُ فالرفع في ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ ﴾ يعطي معنى التقرير لأن كلمة الله هي العليا طبيعةً وأصلًا بدون تصيير متعلق بحادثة معينة[١] .

وهي تعني أن دين الله وأمره وقدره هو الأعلى والأظهر من أي كلمة أخرى ، فكلمة الله ستنتصر في النهاية على كل الكلمات الأخرى ، وأن كلمة الذين كفروا ستكون السفلى .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة : ٣٣] ، فالظهور والعلو هنا لـ : لا إله إلا الله[٢] .

فلا إله إلا الله هي الكلمة العليا وأهلها هم الأعلون ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٥] .

وعن عائذ بن عمرو المزني رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « **الإسلام يَعْلُو ولا يُعْلَى** »[٣] .

وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام ، وهي أن هذا الدِّين قد كتب الله له الرفعة والعلو ، وأن أهله لا يزالون في علو ومكانة حسنة ما داموا متمسكين به ،

---

(١) ينظر : « معاني القرآن » للفراء (١/ ٤٣٨) .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الدارقطني (٣٩٥) ، والبيهقي (٦/ ٢٠٥) ، وحسنه الألباني .

فهذا شرط ذلك ، وهو خبر بمعنى الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، والحديث عام في جميع الأحوال وهذا الاسم الكريم كلمة الله العليا : يؤخذ منه معنى الفخر والاعتزاز بالدين والتوحيد والايمان والتمسك به ، وعلو الهمة في تعلمه والعمل به والدعوة إليه ، والحرص على معالي الأمور ومعالي الأخلاق ، والشعور بالاعتزاز الدائم بدينك وعقيدتك مهما كانت الظروف ، فبذلك رفعتكم وعلو قدركم وعظم شأنكم أيها المسلمون ، وهذا هو وعد الله تعالى لأهل لا إله إلا الله المؤمنين الموحدين ، قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .



١٨ـ الطيب من القول هي لا إله إلا الله

فلا أطيب ولا أطهر من هذه الكلمة ، وهي أطيب كلمةٍ في الوجود وقد طيب الله أهلها وطيب حالهم وأصلح بالهم ومآلهم في الدنيا والآخرة ولذلك يقال لهم عندما يدخلهم الله الجنة بلا إله إلا الله ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : ٧٣] ، والدليل على هذا الاسم الكريم قول الله عز وجل : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج : ٢٤] .

قال البغوي : قوله عز وجل : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ قال ابن عباس : هو شهادة أن لا إله إلا الله[١] .

وقال ابن كثير : وقد قال بعض المفسرين في قوله : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ قيل : لا إله إلا الله .

وقال الطبري : قوله : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ يقول تعالى ذكره : وهداهم ربهم في الدنيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وعن ابن عبادس قال ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ قال : ألهموا . وقوله : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ يقول جلَّ ثناؤه : وهداهم ربهم في الدُّنيا إلى طريق الرب الحميد ، وطريقه : دينه دين الإسلام الذي شرعه لخلقه وأمرهم أن يسلكوه ؛ والحميد ومعناه : أنه محمود عند أوليائه من خلقه .

وقال السعدي ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص ، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله ، أو إحسان إلى عباد الله ،

---

(١) « تفسير البغوي » (٥/ ٣٧٦) .

﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ أي : الصراط المحمود ، وذلك ، لأن جميع الشرع كله محتو على الحكمة والحمد ، وحسن المأمور به ، وقبح المنهي عنه ، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط ، المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح .

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ ، فانظر كيف عبر عن لا إله إلا الله بالطيب من القول! و (أل) هنا تفيد الاستغراق ، فيصح أن تستبدلها بكلمة (كل) حتى تصيب هذا المعنى ، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي : هدوا إلى كل الطيب من الكلام ، وهو كلمة لا إله إلا الله ، فلا أطيب ولا أطهر من هذه الكلمة ، ولذلك فإن المؤمنين عند وفاتهم يوصفون بهذا الوصف طيبين ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۖ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل : ٢٨] أي طيبين طاهرين من دنس الشرك والبدع والمعاصي والطيب عكس الخبيث ، فنجد أن المشركين لما استكبروا عن التوحيد وصفهم الله بالكفر والنجاسة والخبث ، فقال تبارك وتعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ﴾ [التوبة : ٢٨] ، ووصف أهل التوحيد بقوله : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩] أي : طهرها بلا إله إلا الله . وأي كلمة توجد أطهر وأطيب من هذه الكلمة ؟!

قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ﴾ فمن قال لا إله إلا الله وقد تلطخ بنجاسة الشرك والكفر بالله سبعين سنة فإنها تطهره وتزكيه وتجعله طيبًا من خيار عباد الله في لحظة واحدة بعد أن يدخل في الإسلام قائلاً مرةً واحدة : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ، بل ويبدل الله سيئاته بعد ذلك كلّها حسنات فما أعظم وأطيب فضل الله على أهل الكلمة الطيبة لا إله إلا الله !

١٩ـ المثل الأعلى : لا إله إلا الله

قال ابن عباس : المثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله ، ولله المثل الأعلى ، وهو الأفضل والأطيب ، والأحسن ، والأجمل ، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره ، فـ لاإله إلا الله أعلى وأكمل وأفضل ما يوصف به الله ، ولذلك تصدرت صفاته تعالى في أعظم آية في القرآن آية الكرسي التي تمحضت لذكر صفات الرب العليا وأسمائه الحسنى ، فالمثل الأعلى هو الوصف الكامل وأعظم وصف لله هو أنه لا إله إلا هو ، كما جاء ذلك في آية الكرسي ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

ودليل هذا الاسم العظيم قول الله عز وجل : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل : ٦٠] قال ابن عباس : مثل السوء النار والمثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله .

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] ، قال محمد بن المنكدر : في قوله تعالى : ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، قال : لا إله إلا الله .

قوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل : ٦٠] .

﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ قال ابن جرير الطبري[١] : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يقول : ولله المثل الأعلى ، وهو الأفضل والأطيب ، والأحسن ، والأجمل ، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره . وبنحو الذي قلنا في ذلك ، قال أهل التأويل .

---

(١) « تفسير الطبري » (١٤/ ٢٥٨) .

عن قتادة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله .

وعن قتادة ، قوله : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ الإخلاص والتوحيد .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يقول تعالى ذكره : والله ذو العزّة التي لا يمتنع عليه معها عقوبة هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم في هذه الآيات ، ولا عقوبة من أراد عقوبته على معصيته إياه ، ولا يتعذّر عليه شيء أراده وشاءه ، لأنَّ الخلق خلقه ، والأمر أمره ، الحكيم في تدبيره ، فلا يدخل تدبيره خَلَل ، ولا خطأ .

وقال البغوي : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ ، يعني : لهؤلاء الذين يصفون لله البنات ولأنفسهم البنين ﴿ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ ، صفة السوء من الاحتياج إلى الولدِ وكراهية الإناث وقتلهن خوف الفقر ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، الصفة العليا وهي التوحيد وأنه لا إله إلا هو ، وقيل : جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء وغيرها من الصفات .

قال ابن عباس : مثلُ السوءِ النار ، والمثل الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

وفي « الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » للواحدي : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ العذاب والنَّار .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ الإخلاص والتَّوحيد وهو شهادة أن لا إله إلا الله .

وقال أبو الليث السمرقندي : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي : الصفة العليا ، وهي شهادة أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له .

وقال ابن كثير : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أي : النقص إنما ينسب إليهم ، ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ أي : الكمال المطلق من كل وجه ، وهو منسوب إليه ، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

وقال السعدي : قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أي : المثل الناقص والعيب التام ، ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ وهو كل صفة كمال وكل كمال في الوجود فالله أحق به ، من غير أن يستلزم ذلك نقصا بوجه ، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه ، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات بأسرها ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل ، إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه .

وأكثر المفسرين على أن المثل الأعلى الصفات العليا التي تستوجب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له ، واعتقاد الكمال المطلق له جل وعلا ، وأنه لا يساميه في ذلك أحد ، والدليل الثاني لهذا الاسم الكريم قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قال ابن جرير الطبري : وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ يقول : ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، وهو أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، ليس كمثله شيء ، فذلك المثل الأعلى ، تعالى ربنا وتقدّس . عن ابن عباس قوله : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ﴾ يقول : ليس كمثله شيء .

وعن قَتادة قوله : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مثله أنه لا إله إلا هو ، ولا ربّ غيره .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يقول تعالى ذكره : وهو العزيز في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبيره خلقه ، وتصريفهم فيما أراد من إحياء وإماتة ، وبعث ونشر ، وما شاء .

وقال ابن كثير : قال قتادة : مثله أنه لا إله إلا هو ، ولا رب غيره ، وقال مثل هذا ابن جرير . وعن مالك في تفسيره المروي عنه ، عن محمد بن المنكدر ، في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ، قال : لا إله إلا الله .

وقال البغوي : عن أبي صالح عن ابن عباس ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي : الصفة العليا (في السماوات والأرض) قال ابن عباس : هي أنه ليس كمثله شيء . وقال قتادة : هي أنه لا إله إلا هو ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ في ملكه ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في خلقه .

قوله عز وجل : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل : ٦٠] .

قال السعدي رحمه الله : ثم لم يكفهم هذا حتى نسبوا له أردأ القسمين ، وهو الإناث اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها ، فكيف ينسبونها لله تعالى ؟ ! فبئس الحكم حكمهم . ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون ، قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ أي : المثل الناقص والعيب التام ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وهو كل صفة كمال وكل كمال في الوجود فالله أحق به ، من غير أن يستلزم ذلك نقصًا بوجه ، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه ، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة . ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات بأسرها ، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل ، إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه .

وقال الشيخ محمد العثيمين رحمه الله : المراد بالْمَثَل هنا ـ وله المثل الأعلى ـ أيّ المعاني ؟ الصفة ، له الصفة العليا في السماوات الأرض ، كل صفة كاملة فلله سبحانه وتعالى أكملها ، وكل صفة نقص فإنه مُنزَّهٌ عنها ، لماذا يُنَزَّهُ عن صفة النقص ؟ لأنه ما دام قد ثبت له الصفة الكاملة العليا فإنه بالضرورة العقلية ينتفي عنه النقص ؛ لأنه لو اتصف بنقص ما استحق أن يكون له الْمَثَل الأعلى ، إذن هذه الآية الكريمة تدل على صفات الكمال لله عز وجل ، الكمال المطلَق ؛ لأنه قال : ﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ، وعلى انتفاء النقص من جميع الوجوه ؛ إذ إنه لو اتصف بنقص ما استحق أن يكون له المثل الأعلى . ونأخذ من هذا أنه كل ما وصف الله نفسه فهو صفة كمال ، وليس فيه نقص ، كل ما وصف الله به نفسه فهو صفة كمال ، وكل كمال فإن الله تعالى مُسْتَحِقّ له ، فهذان شيئان ؛ الأول : أن نعلم عِلْمَ اليقين أن كل ما وصف الله به نفسه فهو صفة كمال ، الثاني : أن نعلم أن كل صفة كمال فالله تعالى مستحِقّ لها ، فهو أهلٌ لها كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ** »[1] .

وقوله : ﴿ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، كيف معنى المثل الأعلى في السماوات والأرض ؟ نعم ، يعني : عند أهل السماوات من الملائكة ، وعند أهل الأرض ، فكل الفِطَر السليمة فإنها تعترف بأن المثل الأعلى والصفة العليا لله وحده ، وأما قول المؤلف : (وهي أنه لا إله إلا الله) فهذا فرد من أفراد المثل الأعلى ، وليس هو المثل الأعلى كله ، فإن لا إله إلا الله تدل على تفرده سبحانه وتعالى بالألوهية ، وهذا من المثل الأعلى ، لكن المثل الأعلى أعم من ذلك ، فله ـ مثلًا ـ القدرة الكاملة ، والعلم الكامل ، والحياة الكاملة ، والسمع الكامل ، والبصر الكامل ، والحكمة البالغة ، وهكذا ، فهي أعمّ من تفرده بالألوهية .

---

(١) مسلم (٤٧٧) ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

٢٠ـ كلمة السواء لا إله إلا الله

والدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

قال الطبري : قال أبو العالية : الكلمة السواء لا إله إلا الله

وقال مجاهد : ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ كلمة التوحيد : لا إله إلا الله .

وهذه الآية من أوضح الآيات وأبينها في الدلالة على أن لا إله إلا الله وهي تعني : « لا معبود بحق إلا الله » ، ففي هذه الآية نداء لأهل الكتاب إلى الاجتماع على كلمة سواء ، وهي كلمة التوحيد .

قال أبو العالية : كلمة السواء : لا إله إلا الله[١] .

ولا معنى لهذه الآية الكريمة إلا ماهو المراد من قول : « لا إله إلا الله » لأنه تعالى قال بعده : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ ولا معنى لهذه الكلمة إلا ما هو المراد من قول « لا إله إلا الله » فثبت أن المراد من كلمة السواء هو كلمة « لا إله إلا الله » .

وقال أبو الليث السمرقندي : ويقال في قراءة عبد الله بن مسعود إلى كلمة عدل بيننا وبينكم ، يعني : « لا إله إلا الله » ، وهي كلمة الإخلاص[٢] .

---

(١) ينظر : « تفسير ابن أبي حاتم » (٢/ ٦٦٩) .

(٢) « تفسير السمرقندي » (١/ ٢٢١) .

وقال ابن أبي زمنين : يعني : لا إله إلا الله[١] .

وقال الراغب الأصفهاني : وقول الربيع وأبي العالية " كَلِمَةٍ سَوَاء هي : لا إله إلا الله[٢] .

ثم فسَّر الله هذه الكلمة التي دعاهم إليها ، فقال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾ ، وتأمل في « لا إله إلا الله » كيف اشتملت على النفي والإثبات ، وماذا يقوم مقام هذه الكلمة في قوله تعالى : ﴿ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ يتضح لك جليًّا ما نروم التأصيل له ، فـ (لا إله) يقابله ﴿ أَلَّا نَعۡبُدَ ﴾ و ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ متفق في الاثنين ، فالإله إذن هو المعبود .

ومعنى « لا إله إلا الله » : أي لا معبود بحقٍ إلا الله ، وبعض الناس من ذوي القلوب المريضة من المنافقين يسيئون استعمال هذه الآية ليداهنوا النصارى وإخوانهم الذين نافقوا ، فيفهموا الناس أن الكلمة السواء هي حل وسط ، وليست داعية إلى الدخول في الإسلام ، فمعنى : ﴿ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ : أن تدخلوا في دين الله في الإسلام ، وتقولوا : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وليس كلمة (سواء) حل وسط يرضي جميع الأطراف ؛ فإن هذا مما لا يجوز ولايصح به توحيدٌ ولاعقيدة والدليل على هذا قوله تبارك وتعالى بعدها : ﴿ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ .

---

(١) « تفسير القرآن العزيز » (١/ ٢٩٣) .

(٢) « تفسير الراغب الأصفهاني » (٢/ ٦١٢) .

وقال السعدي : أي : قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي : هلموا نجتمع عليها وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون ، ودلم يخالفها إلا المعاندون والضالون ، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر ، بل مشتركة بيننا وبينكم ، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدال ، ثم فسرها بقوله ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ فنفرد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبيًا ولا ملكًا ولا وليًا ولا صنمًا ولا وثنًا ولا حيوانًا ولا جمادًا ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ بل تكون الطاعة كلها لله ولرسله ، فلا نطيع المخلوقين في معصية الخالق ، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية ، فإذا دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك ، فإن أجابوا كانوا مثلكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم فاشهدوهم أنكم مسلمون ، ولعلَّ الفائدة في ذلك أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة ، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين ، وأيضًا فإنكم إذا أسلمتم أنتم وآمنتم فلا يعبأ الله بعدم إسلام غيركم لعدم زكائهم ولخبث طويتهم ، كما قال تعالى ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧] الآية ، وأيضًا فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلن بإسلامه ، إخبارًا بيقينه وشكرًا لنعمة ربه[١] .

ويؤخذ من هذه الآية جواز مناقشة أهل الكتاب وأصحاب الملل والأديان والمذاهب والفرق المختلفة ومجادلتهم لدعوتهم وإقناعهم بالدخول في الدِّين الحق

---

(١) « تفسير السعدي » ص(١٣٣) .

الإسلام وذلك من قبل العلماء المتمكنين والمتمرسين لأساليب الحوار وطرق الإقناع قال عز وجل : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ، وقال تعالى ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .



٢١ـ كلمة الاستقامة لا إله إلا الله

والدليل قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

قال ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله[١] .

قال الطبري : عن مجاهد : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ قال : أي على : لا إله إلا الله[٢] .

وعن عكرمة قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ قال : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله .

وقال البغوي : وقال مجاهد وعكرمة : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله[٣] .

وأخرج عبد بن حميد ، عن إبراهيم ومجاهد قالا في قوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ قالوا : لا إله إلا الله لم يشركوا بعدها بالله شيئًا حتى يلقوه .

وجاء في « الدر المنثور » عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : المراد من قوله تعالى : ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ هو قول : لا إله إلا الله .

---

(١) البيهقي في « الأسماء والصفات » (١/ ٢٧١) .
(٢) « تفسير الطبري » (٢٠/ ٤٢٤) .
(٣) « تفسير البغوي » (٧/ ١٧٢) .

ولفظة ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ تشمل أيضًا الاستقامة على دين الله وطاعته عمومًا ، كما فسرها جمع من الصحابة والتابعين ، نقل ذلك الطبري وابن كثير والبغوي ومن ذلك :

سئل أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، عن « الاستقامة » فقال : أن لا تشرك بالله شيئًا .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « الاستقامة » أن تستقيم على الأمر والنهي ، ولا تروغ روغان الثعلب .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : أخلصوا العمل لله .

وقال علي رضي الله عنه : أدوا الفرائض .

وقال ابن عباس : استقاموا على أداء الفرائض .

وقال الحسن : استقاموا على أمر الله تعالى فعملوا بطاعته ، واجتنبوا معصيته .

وقال قتادة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾قال استقاموا على طاعة الله .

وكان الحسن إذا تلاها قال : اللهمَّ فأنت ربنا ، فارزقنا الاستقامة .

وقال تعالى ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ [هود : ١١٢] .

وقال عز وجل : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [فصلت : ٦] .

﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ أي . اسلكوا الصراط الموصل إلى اللّه تعالى ، بتصديق الخبر الذي أخبر به ، واتباع الأمر ، واجتناب النهي ، هذه حقيقة الاستقامة ، ثم الدوام على ذلك ، وفي قوله : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ تنبيه على الإخلاص .

ولما كان العبد ، ـ ولو حرص على الاستقامة ـ لا بدَّ أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور ، أو ارتكاب منهي ، أمره بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ ثم توَّعد من ترك الاستقامة فقال : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

فيجب على المسلم أن يستقيم على توحيد الله وطاعته وعلى أداء الفرائض ونوافل الطاعات وعلى أداء حقوق الله عز وجل وحقوق عباده وأن يجتنب المعاصي والمحرمات ويبادر إلى التوبة إذا وقع في تقصير أو ذنب ويسأل الله الثبات على الاستقامة حتى الممات ويستعيذ بالله من الحور بعد الكور فقد روى ابن ماجه في « سننه » عن عبدالله بن سرجس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « **اللهمَّ إني أعوذُ بكَ من الحَور بعد الكَور** »[1] أي الرجوع من الإيمان إلى الكفر ، أو من الطاعة إلى المعصية ، وتبدُّل حال المؤمن من الحسن إلى السيئ ، ومن الاستقامة أو الزيادة إلى ضعف الإيمان ، ونقصان العمل الصالح الذي اعتاد عليه .



(١) مسلم (٤٢٤) ، وابن ماجه (٣٨٨٨) .

٢٢ ـ الكلم الطيب لا إله إلا الله :

والدليل قول الله عز وجل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

قال البغوي : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أي : إلى الله ﴿ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ وهو قوله لا إله إلا الله .

قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ « التوحيد » . وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ « التوحيد » .

لا يرتفع العمل إلا بالتوحيد كقوله : ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] .

والقول بأن الكلم الطيب هو التوحيد هو قول السدي ، ويحيى بن سلام البصري . وقال يحيى بن سلام البصري : قال السدي : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ يعني : الكلام الحسن ، يعني : شهادة أن لا إله إلا اللّه) وقال يحيى بن سلام البصري : قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ التّوحيد .

وقال أبو إسحاق الزجاج : (ثم بين كيف يعزّ باللّه ؛ فقال : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ أي : إليه يصل الكلم الذي هو توحيد اللّه ، وهو قول لا إله إلا الله .

وقال ابن أبي زمنين : قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ ، يقول : من كان يريد العزة ؛ فليتعزز بطاعة الله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ هو التوحيد ، لا يرتفع العمل إلا بالتوحيد .

قال ابن عطية الأندلسي (ت : ٥٤٢هـ) رحمه الله : « وقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ أي : التوحيد والتمجيد وذكر الله ونحوه .

وقال ابن عطية : (قال قوم : الفاعل بـ"يرفع" هو "الكلم" ، أي : والعمل يرفعه الكلم ، وهو قول : لا إله إلا الله؛ لأنه لا يرتفع عمل إلا بتوحيد) .

وقال القرطبي : فعلى هذا العمل الصالح يرفع الكلم الطيب إلى الله . والكناية في (يرفعه) ترجع إلى الكلم الطيب . وهذا قول ابن عباس وشهر بن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأبي العالية والضحاك . وعلى أن الكلم الطيب هو التوحيد ، فهو الرافع للعمل الصالح ؛ لأنه لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمان والتوحيد . أي والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب ؛ فالكناية تعود على العمل الصالح .

ونحن نعلم أن للعمل حتى يكون صالحًا مقبولًا عند الله شرطان : الإخلاص والمتابعة .

الأول : الإخلاص وهذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ...﴾ [البينة : ٥] ، فلا يرتفع العمل إلا بالتوحيد ولا إله إلا الله وأما من دخل عمله الشرك فإنه لايقبل منه عمله بل يحبط الشرك العمل ويبطله لقوله تعالى ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

والثاني : المتابعة للنبي ﷺ وهذا هو مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله ، فلا يقبل العمل إلا إذا كان على هدي رسول الله وسنَّته ، وإلا كان خطأً وبدعةً ؛ لحديث : « **من عَمِلَ عَملاً ليسَ عَليهِ أمرُنا فهو رَدٌّ** »[1] .

---

(١) البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

٢٣ـ الدين الخالص لا إله إلا الله :

والدليل قوله تعالى :﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣] .

قال الطبري : عن قتادة ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله .

وقال ابن كثير : وقال قتادة في قوله : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله .

وقال البغوي[١] : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . وَقِيلَ : لَا يَسْتَحِقُّ الدِّينَ الْخَالِصَ إِلَّا اللهُ . وَقِيلَ : الدِّينُ الْخَالِصُ مِنَ الشَّرَكِ هُوَ لِلَّهِ

قال الطبري في « تفسيره »[٢]: وقوله : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ يقول تعالى ذكره : ألا لله العبادة والطاعة وحده لا شريك له ، خالصة لا شرك لأحد معه فيها ، فلا ينبغي ذلك لأحد ، لأن كل ما دونه ملكه ، وعلى المملوك طاعة مالكه لا من لا يملك منه شيئًا . وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل . عن قتادة ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ يقول تعالى ذكره : والذين اتخذوا من دون الله أولياء يَتَوَلَّوْنَهُم ، ويعبدونهم من دون الله ، يقولون لهم : ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زُلْفَى ، قربة ومنزلة ،

---

(١) « تفسير البغوي » (٧/ ١٠٤) .

(٢) « تفسير الطبري » (٢٠/ ١٦٠) .

وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا ، وهي فيما ذُكر في قراءة أبي : « ما نَعْبُدُكُمْ » ، وفي قراءة عبد الله : « قالوا ما نعبدهم » وإنما حسن ذلك لأن الحكاية إذا كانت بالقول مضمرًا كان أو ظاهرًا ، جعل الغائب أحيانًا كالمخاطب ، ويترك أخرى كالغائب ، وقد بيَّنت ذلك في موضعه فيما مضى .

عن السديّ ، قال : هي في قراءة عبد الله : « قالُوا ما نَعْبُدُهُمْ » وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل .

۞ ذكر من قال ذلك :

عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ قال : قريش تقوله للأوثان ، ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزَير .

عن قتادة ، قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ قالوا : ما نعبد هؤلاء إلا ليقرّبونا ، إلا ليشفعُوا لنا عند الله .

عن السديّ ، في قوله : ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ قال : هي منزلة .

عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ ﴾يقول سبحانه : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين .

قال ابن زيد في قوله : ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾قال : قالوا هم شفعاؤنا عند الله ، وهم الذين يقربوننا إلى الله زلفى يوم القيامة للأوثان ، والزلفى : القُرَب .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره : إن الله يفصل بين هؤلاء الأحزاب الذين اتخذوا في الدُّنيا من دون الله أولياء يوم القيامة ، فيما هم فيه يختلفون في الدُّنيا من عبادتهم ما كانوا يعبدون فيها ، بأن يصليهم جميعًا جهنم ، إلا من أخلص الدِّين لله ، فوحده ، ولم يشرك به شيئًا .

يقول تعالى ذكره : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ﴾ إلى الحق ودينه الإسلام ، والإقرار بوحدانيته ، فيوفقه له ﴿ مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ ﴾ مفتر على الله ، يتقول عليه الباطل ، ويضيف إليه ما ليس من صفته ، ويزعم أن له ولدا افتراء عليه ، كفار لنعمه ، جحودا لربوبيته .

وقال ابن كثير[١] في تفسير هذه الآية : ولهذا قال : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ أي : لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله ، وحده لا شريك له .

وقال قتادة في قوله : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله . ثم أخبر تعالى عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون : ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ أي : إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم ، فعبدوا تلك الصور تنزيلًا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ؛ ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم ، وما ينوبهم من أمر الدنيا ، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به .

قال قتادة ، والسدي ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وابن زيد : ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ أي : ليشفعوا لنا ، ويقربونا عنده منزلة .

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٧/ ٨٤) .

ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » .

وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه ، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بردها والنهي عنها ، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم ، لم يأذن الله فيه ولا رضي به ، بل أبغضه ونهى عنه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وأخبر أن الملائكة التي في السماوات من المقربين وغيرهم ، كلهم عبيد خاضعون لله ، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى ، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم ، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه ، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [النحل : ٧٤] ، تعالى الله عن ذلك .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : يوم القيامة ، ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ، ويجزي كل عامل بعمله ، ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠ ـ ٤١] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي : لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله ، وقلبه كفار يجحد بآياته [وحججه] وبراهينه .

وقال البغوي[١] : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . وَقِيلَ : لَا يَسْتَحِقُّ الدِّينَ الْخَالِصَ إِلَّا اللهُ . وَقِيلَ : الدِّينُ الْخَالِصُ مِنَ الشَّرَكِ هُوَ لِلَّهِ .

وقال السعدي[٢] : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص ، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله ، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه ، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب ، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه ، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به ، لأنه متضمن للتأله للّه في حبه وخوفه ورجائه ، وللإنابة إليه في عبوديته ، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده .

وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها ، دون الشرك به في شيء من العبادة . فإن اللّه بريء منه ، وليس للّه فيه شيء ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك ، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة ، مُشْقٍ للنفوس غاية الشقاء ، فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص ، نهى عن الشرك به ، وأخبر بذم من أشرك به فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي : يتولونهم بعبادتهم ودعائهم ، [معتذرين] عن أنفسهم وقائلين : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ أي : لترفع حوائجنا للّه ، وتشفع لنا عنده ، وإلا ، فنحن نعلم أنها ، لا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تملك من الأمر شيئًا .

أي : فهؤلاء ، قد تركوا ما أمر اللّه به من الإخلاص ، وتجرأوا على أعظم المحرمات ، وهو الشرك ، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء ، الملك العظيم ،

---

(١) « تفسير البغوي » (٧/ ١٠٤) .

(٢) « تفسير السعدي » ص(٧١٧) .

بالملوك ، وزعموا بعقولهم الفاسدة ورأيهم السقيم ، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء ، وشفعاء ، ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم ، ويستعطفونهم عليهم ، ويمهدون لهم الأمر في ذلك ، أن الله تعالى كذلك .

وهذا القياس من أفسد الأقيسة ، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق ، مع ثبوت الفرق العظيم ، عقلا ونقلا وفطرة ، فإن الملوك ، إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم ، لأنهم لا يعلمون أحوالهم . فيحتاج من يعلمهم بأحوالهم ، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة ، فيحتاج من يعطفهم عليه [ويسترحمه لهم] ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء ، ويخافون منهم ، فيقضون حوائج من توسطوا لهم ، مراعاة لهم ، ومداراة لخواطرهم ، وهم أيضا فقراء ، قد يمنعون لما يخشون من الفقر .

وأما الرب تعالى ، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها ، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيته وعباده ، وهو تعالى أرحم الراحمين ، وأجود الأجودين ، لا يحتاج إلى أحد من خلقه يجعله راحمًا لعباده ، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم ، وهو الذي يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته ، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم ، وهو الغني ، الذي له الغنى التام المطلق ، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه ، فأعطى كلا منهم ما سأل وتمنى ، لم ينقصوا من غناه شيئا ، ولم ينقصوا مما عنده ، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط .

وجميع الشفعاء يخافونه ، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه ، وله الشفاعة كلها .

فبهذه الفروق يعلم جهل المشركين به ، وسفههم العظيم ، وشدة جراءتهم عليه .

ويعلم أيضًا الحكمة في كون الشرك لا يغفره اللّه تعالى ، لأنه يتضمن القدح في اللّه تعالى ، ولهذا قال حاكمًا بين الفريقين ، المخلصين والمشركين ، وفي ضمنه التهديد للمشركين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾

وقد علم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم ، ومن يشرك باللّه فقد حرم اللّه عليه الجنة ، ومأواه النار . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ﴾ أي : لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿ مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾ أي : وصفه الكذب أو الكفر ، بحيث تأتيه المواعظ والآيات ، ولا يزول عنه ما اتصف به ، ويريه اللّه الآيات ، فيجحدها ويكفر بها ويكذب ، فهذا أنَّى له الهدى وقد سد على نفسه الباب ، وعوقب بأن طبع اللّه على قلبه ، فهو لا يؤمن .



٢٤ ـ الزكاة والمراد بمن تزكى في الآية : قول لا إله إلا الله

والدليل قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤ ـ ١٥] .

وقوله : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت : ٦ ـ ٧] .

قال السيوطي في « الدر المنثور » : أخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ : – في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ قال : من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ قال : هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها » .

وقال الطبري عن عكرِمة ، من قال : لا إله إلا الله .

وقال البغوي : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ تطهر من الشرك .

وقال : لا إله إلا الله . هذا قول عطاء وعكرمة ورواية الوالبي وسعيد بن جبير عن ابن عباس .

وجاء في « الدر المنثور » للسيوطي أيضًا قوله :

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ قال : من قال لا إله إلا الله .

وأخرج البيهقي في « الأسماء والصفات »[1] من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ قال : من قال لا إله إلا الله .

---

(١) « الأسماء والصفات » (١/ ٢٧١) .

فلذلك نجد أن المشركين لما استكبروا عن التوحيد وصفهم الله بالكفر ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة : ٢٨] ، ووصف أهل التوحيد بقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩] أي : طهرها بلا إله إلا الله .

قال تعالى : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ قال الطبري : وقوله : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره : وصديد أهل النار ، وما يسيل منهم للمدعين لله شريكًا العابدين الأوثان دونه الذين لا يؤتون الزكاة .

اختلف أهل التأويل في ذلك ، فقال بعضهم : معناه : الذين لا يعطون الله الطاعة التي تطهرهم ، وتزكي أبدانهم ، ولا يوحدونه؛ وذلك قول يذكر عن ابن عباس .

عن عليّ ، عن ابن عباس ، قوله : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ قال : هم الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله .

وعن عكرمة ، قوله : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ : الذين لا يقولون لا إله إلا الله .

وقال ابن كثير : ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يعني : الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله . وكذا قال عكرمة .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩ ـ ١٠] ، وكقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤ ـ ١٥] ، وقوله : ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات : ١٨] والمراد بالزكاة هاهنا : طهارة النفس من

الأخلاق الرذيلة ، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك . وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام ، وتكون سببًا لزيادته وبركته وكثرة نفعه ، وتوفيقا إلى استعماله في الطاعات[١] .

وقال البغوي[٢] ؛ ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ قال ابن عباس : الذين لا يقولون لا إله إلا الله وهي زكاة الأنفس . والمعنى : لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد .

وقال ابن القيِّم في « إغاثة اللهفان »[٣] : « قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم هي التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ماسوى الحق من القلب وذلك طهارته وإثبات إلهيته سبحانه وهو أصل كل زكاءٍ ونماء » .

فقوله : ﴿ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي : لا يقولون : لا إله إلا الله ، ولا يزكون أنفسهم بالتوحيد ، ولذلك فالمشرك مهما نظف نفسه فهو من أخبث خلق الله ؛ لأن قلبه نجس ، فقد استكبر عن أن يؤمن بلا إله إلا الله ، وأن يقول : لا إله إلا الله ، فهو نجس خبيث ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] ، فالنجاسة الحاصلة بسبب كفرهم لا تزول ، فلو عاش رجل سبعين سنة وهو يشرك بالله في الألوهية ـ وهو أخبث أنواع الشرك والكفر والعياذ بالله ـ ثم قال هذه الكلمة مرة واحدة فإنه تزول بهذه الكلمة الطاهرة

(١) « تفسير ابن كثير » (٧/ ٨٤) .
(٢) « تفسير البغوي » (٧/ ١٦٤) .
(٣) « إغاثة اللهفان » (١/ ٥٦) .

الطيبة نجاسة سبعين سنة من الكفر ، وتطهره تمامًا من نجاسة هذا العمر الطويل ، ولو أنك تخيلت مثل هذا الخبث الذي يبقى عليه الإنسان سبعين سنة يزول بكلمة يقولها وهي الكلمة الطيبة لا إله إلا الله ؛ لأنها أطيب وأطهر ما يقال على الإطلاق فيكون بعد قولها من أهل الزكاة والتزكية ويطهره الله من الشرك ونجاسته بكلمة الزكاة لا إله إلا الله .

فينبغي للمسلم أن يتعلم من هذا الاسم الكريم للا إله إلا الله فيكون من أهل الزكاة والتزكية قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ فيزكي نفسه أعظم تزكية بلا إله إلا الله بتجريد التوحيد لله بإفراده بالعبادة وحده لاشريك له وبالعقيدة الصحيحة ومعرفة أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة والعمل بذلك ولزوم هدي السلف الصالح ، وأن يتزكى ويحرص على تزكية نفسه بمجاهدتها على العلم النافع والعمل الصالح المزكي للنفوس وبأداء الفرائض والواجبات واجتناب المعاصي والمحرمات والتحلي بالأخلاق الكريمة والآداب الجميلة كما قال عز وجل ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ وكقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ويحرص المسلم على أداء الزكاة المفروضة عليه إذا وجبت في ماله فهي ركنٌ من أركان الإسلام .



٢٥ ـ القول المرضيّ لا إله إلا الله

والدليل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه ١٠٩] .

قال البغوي : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ يعني : لا تنفع الشفاعة أحدًا من الناس ، ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ ﴾ يعني إلا من أذن له أن يشفع ، ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ يعني : ورضي قوله ، قال ابن عباس ، يعني : قال لا إله إلا الله وهذا يدل على أنه لا يشفع غير المؤمن .

وقال مقاتل بن سليمان : ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ : التوحيد .

وقال القرطبي[١] : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ ﴾ أي لا تنفع الشفاعة أحدًا إلا شفاعة من أذن له الرحمن ورضي له قولًا ، أي رضي قوله في الشفاعة .

وقيل : المعنى ، أي إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له ، وكان له قول يرضى .

قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله .

قال الواحدي في « الوجيز » : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ أحدًا ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ ﴾ في أن يشفع له ، وهم المسلمون الذين رضي الله قولهم ؛ لأنهم قالوا : لا إله إلا الله ، وهذا معنى قوله : ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ .

---

(١) « تفسير القرطبي » (١١/ ٢٤٧) .

وقال السعدي[١] : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ أي : لا يشفع أحد عنده من الخلق ، إلا إذا أذن في الشفاعة ولا يأذن إلا لمن رضي قوله ، ـ أي : شفاعته ، من الأنبياء والمرسلين ، وعباده المقربين ، فيمن ارتضى قوله وعمله ، وهو المؤمن المخلص ، فإذا اختل واحد من هذه الأمور ، فلا سبيل لأحد إلى شفاعة من أحد .

ففي ذلك اليوم لا تنفع الشفاعة أحدًا من الخلق ، إلا إذا أذن الرحمن للشافع ، ورضي عن المشفوع له ، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن المخلص



(١) « تفسير السعدي » ص(٥١٣) .

٢٦ـ الإحسان لا إله إلا الله

والدليل قوله تعالى : ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

قال ابن عباس : « هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد إلا الجنة » .

وخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة : ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ قال : هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة . وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن ، مثله.

وقال قتادة : ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله .

قال البغوي : قال ابن عباس : هل جزاء من قال : لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة[١] ؟

وقال أيضًا : ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ ؟ أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة .

أخبرنا أبو سعيد الشريحي ، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي ، أخبرني ابن فنجويه ، أخبرنا [ابن شيبة] ، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن بهرام ، أخبرنا الحجاج بن يوسف المكتب ، أخبرنا بشر بن الحسين ، عن الزُّبير بن عدي ، عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ ، ثم قال : « **هل تدرون ما قال ربكم ؟** » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « **يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة** »[٢] .

---

(١) « تفسير البغوي » (٧/ ٤٥٥) .

(٢) السيوطي في « الدر المنثور » (٧/ ٧١٤) .

وقال ابن كثير[١] : وقوله : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ أي : ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة . كما قال تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس : ٢٦] .

ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل ، بل مجرد تفضل وامتنان ، قال بعد ذلك كله : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وقال السيوطي في « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » : قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » وضعفه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : في قول الله : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ قال : ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة .

وأخرج ابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ في هذه الآية : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ قال : « **هل جزاء من أنعمنا عليه بالإسلام إلا أن أدخله الجنة** » .

وأخرج الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » والبغوي في « تفسيره » والديلمي في « مسند الفردوس » ، وابن النجار في « تاريخه » عن أنس قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ وقال : هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » .

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٧/ ٥٠٥) .

وأخرج ابن النجار في « تاريخه » عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ قال : هل جزاء من قال لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة .

وخرج عبد بن حميد ، عن عكرمة : هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، قال : هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة . وأخرج عبد بن حميد ، عن الحسن ، مثله .

وقال ابن القيِّم : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه .

قال ابن عباس : « هل جزاء من قال لا إله إلا الله ، وعمل بما جاء به محمد إلا الجنة » .

وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ثم قال : « هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » .

وقال ابن القيم في « مدارج السالكين »[1] : وَمِن مَنازِلِ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ مَنزِلَةُ الإحْسانِ .

---

(١) « مدارج السالكين » ٢/ ٤٢٩ .

وَهِيَ لُبُّ الإيمانِ ، ورُوحُهُ وكَمالُهُ ، وهَذِهِ المَنزِلَةُ تَجْمَعُ جَمِيعَ المَنازِلِ . فَجَمِيعُها مُنْطَوِيَةٌ فِيها . وكُلُّ ما قِيلَ مِن أوَّلِ الكِتابِ إلى هاهُنا فَهو مِنَ الإحْسانِ .

قالَ صاحِبُ « المَنازِلِ » رحمه الله ـ وقَدِ استشهد على هذه المنزلةِ بقوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ .

فالإحْسانُ : جامِعٌ لِجَمِيعِ أبْوابِ الحَقائِقِ ، وهو أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَراهُ .

أمّا الآيةُ : فَقالَ ابْنُ عَبّاسٍ والمُفَسِّرُونَ : هَلْ جَزاءُ مَن قالَ : لا إلَهَ إلّا اللهُ وعَمَلَ بِما جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ إلّا الجَنَّةُ ؟

وَقَدْ « رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قَرَأ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾

ثُمَّ قالَ : هَلْ تَدْرُونَ ماذا قالَ رَبُّكُمْ ؟ قالُوا : اللهُ ورَسُولُهُ أعْلَمُ ، قالَ : يَقُولُ : هَلْ جَزاءُ مَن أنْعَمْتُ عَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ إلّا الجَنَّةُ ؟ »

وقال الطبري : بسنده عن محمد بن جابر ، قال : سمعت محمد بن المنكدر يقول في قول الله جلّ ثناؤه ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ قال : هل جزاء من أنعمت عليه بالإسلام إلا الجنة[١] .

وقد عرَّف أهل العلم الإحسان :

قال حافظ حكمي في منظومة « سلم الوصول » : مرتبةُ الإحسانِ :

وَثَالِـــثٌ مَرْتَبَـــةُ الْإِحْـــسَانِ ... وَتِلْـكَ أَعْلَاهَـا لَـدَى الـرَّحْمَنِ
وَهِيَ رُسُوخُ الْقَلْبِ فِي الْعِرْفَانِ ... حَتَّـى يَكُـونَ الْغَيْـبُ كَالْعِيَـانِ

(١) « تفسير الطبري » (٢٢/ ٢٥٢) .

وقال حافظ حكمي في « معارج القبول بشرح سلم الوصول » [١] عن الإحسان : وقد فسره النبي ﷺ تفسيرًا لا يستطيعه من المخلوقين أحد غيره ﷺ لما أعطاه الله تعالى من جوامع الكلم ، فقال ﷺ : « **الإحسان أنْ تَعبُدَ الله كأنَّكَ تَراهُ ، فإنْ لَمْ تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ** »[٢] ، أخبر ﷺ أن مرتبة الإحسان على درجتين ، وأن للمحسنين في الإحسان مقامين متفاوتين : **المقام الأول** : وهو أعلاهما ، أن تعبد الله كأنك تراه ، وهذا مقام المشاهدة ، وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته الله عز وجل بقلبه ، وهو أن يتنور القلب بالإيمان ، وتنفذ البصيرة في العرفان حتى يصير الغيب كالعيان ، فمن عبد الله عزوجل على استحضار قربه منه ، وإقباله عليه ، وأنه بين يديه كأنه يراه ، أوجب له ذلك الخشية والخوف والهيبة والتعظيم .

المقام الثاني : مقام الإخلاص ، وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه ، وإطلاعه عليه وقربه منه ، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه ، فهو مخلص لله تعالى لأن استحضاره ذلك في عمله ، يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل ، وهذا المقام هو الوسيلة الموصلة إلى المقام الأول ، ولهذا أتى به النبي ﷺ تعليلًا للأول ، فقال : « **فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » .

قلت : ولا شك أن الإحسان يشمل ويعم الدِّين كله ، فمراتب الدِّين الإسلام والإيمان والإحسان ويدخل تحته جميع شعب الإيمان القلبية والقولية والعملية ، ويشمل الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباده كل ذلك ، وجميع ما ذكر داخلٌ في الإحسان وتحت مسمَّاه ، وكل محسن فهو مؤمن مسلم ، ولذلك قال السعدي :

---

(١) « معارج القبول » (٣/ ٩٩٨) .

(٢) مسلم (٨) ، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ أي : هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده ، إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل ، والفوز الكبير ، والنعيم المقيم ، والعيش السليم ، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين[١] .

فاللهم اجعلنا من المحسنين وأهل الإحسان في عبادتك والإحسان إلى عبادك ، وأحسن إلينا في ديننا ودنيانا وأخرانا ، يامحسن ياكريم .



(١) « تفسير السعدي » ص(٨٣١) .

٢٧ ـ القسط لا إله إلا الله

والدليل قوله تعالى ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] .

قال البغوي : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ قال ابن عباس : بلا إله إلا الله .

وقال الضحاك : بالتوحيد . وقال مجاهد والسدي : بالعدل .

ولاشك أن أعظم العدل هو التوحيد ، وما دلت عليه لا إله إلا الله ، ويدخل تحته كل ماهو من العدل عمومًا من إعطاء الحقوق لأهلها والعدل بين الناس ، ومن أسماء لا إله إلا الله التي ذكرتها في هذا الكتاب : العدل ، فقلت : كلمة العدل لا إله إلا الله بل هي أعدل العدل ، كما أن الشرك هو أظلم الظلم ، والدليل قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

قال ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله .

وعن عبدالله بن عمرو قال قال رسول الله : « **إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ الله عَلَى مَنابرَ مِنْ نُورٍ ، عَنْ يَمينِ الرَّحمن ، وكِلتَا يَديهِ يَمينٌ ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ في حُكمِهم وأَهْلِيهِمْ ومَا ولُوا** »[(١)] رواه مسلم .

❁ ❁ ❁

(١) مسلم (١٨٢٧) .

٢٨ـ التي هي أقوم : لا إله إلا الله

أي أعدل ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩] .

قال البغوي : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ أي : إلى الطريقة التي هي أصوب . وقيل : الكلمة التي هي أعدل وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، ﴿ وَيُبَشِّرُ ﴾ يعني : القرآن ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ وهو الجنة .

وقال السعدي في تفسير هذه الآية : يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ أي : أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق ، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره .

﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ من الواجبات والسنن ، ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أعده الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو . نسأل الله تعالى من فضله .



٢٩ ـ القول الأحسن : هو لا إله إلا الله

وأحسن القول : قول لا إله إلا الله ولاشك أنها هي أحسن الأقوال وأحسن الكلمات في الوجود كله وقد تضمنت أحسن وأعظم المعاني وهو توحيد الله وإفراده بالعبادة والدليل قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر : ١٧ ـ ١٨] .

قال البغوي : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ وكله حسن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

قال ابن زيد : نزلت ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ الآيتان ، في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله : زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبي ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي . والأحسن : قول لا إله إلا الله .

وقال الطبري : وقوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ يقول تعالى ذكره : الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، الذين هداهم الله ، يقول : وفقهم الله للرشاد وإصابة الصواب ، لا الذين يعرضون عن سماع الحقّ ، ويعبدون ما لا يضرّ ، ولا ينفع . وقوله : ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ يعني : أولو العقول والحجا .

وذُكر أن هذه الآية نزلت في رهط معروفين وحَّدوا الله ، وبرئوا من عبادة كل ما دون الله قبل أن يُبعث نبيّ الله ، فأنزل الله هذه الآية على نبيه يمدحهم .

۞ ذكر من قال ذلك :

حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ... ﴾ الآيتين ، حدثني أبي أن هاتين الآيتين نزلتا في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله : زيد بن عمرو ، وأبي ذرّ الغفاري ، وسلمان الفارسيّ ، نزل فيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ في جاهليتهم ﴿ وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ ﴾ لا إله إلا الله ، أولئك الذين هداهم الله بغير كتاب ولا نبي ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

وقال السيوطي في « الدر المنثور » : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ قال : نزلت هَاتَانِ الآيتانِ في ثلاثةِ نفر كَانُوا في الجاهلية يقولون : لَا إِلَه إِلَّا الله ، في زيد بن عَمْرو بن نفيل ، وأبي ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي .

وأخرج مردويه عن ابْن عمر رضي الله عنهما قال : كان سعيد بن زيد وأبو ذر وسلمان يتبعون في الجاهلية أحسن القول وأحسن القول والكلام لا إله إلا الله ، قالوا بها فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ﴿ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ الآية .

۞ ۞ ۞

٣٠ ـ الصراط المستقيم : لا إله إلا الله

والدليل قوله تعالى ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

قال بن أبي حاتم في « تفسيره » : عَنِ الضَّحَّاكِ ، عنِ ابن عباس : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ يَقُولُ : ألهمنا دينك الحقَّ ، وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وروي عن الضحّاك أنه قال : الصراط المستقيم : لا إله إلا الله .

فقد ورد عن بعض السلف تفسيرُ الصراط المستقيم بأنه « لا إله إلا الله » ، وهو تفسيرٌ مأثور داخل في المعنى العام للصراط ، لا على سبيل الحصر .

وهذا التفسير ليس مخالفًا لما اشتهر عن السلف من تفسيره بـ : الإسلام ، القرآن ، دين الله ، اتباع النبي ﷺ ، فهذا من اختلاف التنوع وليس اختلاف تضاد ، وكل ما ذكره السلف فيه فهو صادقٌ عليه ؛ فهذا من اختلاف التنوع ، وتفسير الصراط المستقيم بلا إله إلا الله لأن لا إله إلا الله هي أصل الإسلام ، وأساس الدين ، ومدخل الصراط كله ، كما قال ابن القيِّم رحمه الله :

الصراط المستقيم هو معرفة الحق والعمل به ، وأصله التوحيد . لأنه قيل الصراط المستقيم هو الإسلام وهو القرآن .

فخلاصة القول :

فُسِّر الصراط المستقيم بـ « لا إله إلا الله » عن بعض السلف وهو تفسير بالأصل والأساس ، لا مانع من اجتماعه مع بقية التفاسير المأثورة ، ولهذا قال ابن كثير[١] :

---

(١) « تفسير ابن كثير » (١/ ١٣٦) .

وكل هذه الأقوال صحيحة ، وهي متلازمةٌ ، فإن من اتبع النبي ﷺ واقتدى بالذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق ، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام ، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن .

ومعنى قول المسلم وتكراره لـ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ، مع أنه من المؤمنين وأهل الصراط المستقيم ، أي : استمرّ بنا عليه ، ولا تعدل بنا إلى غيره .

لهذا قال الإمام أبو جعفر بن جريرٍ رحمه الله[1] : والّذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي ـ أعني ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ـ أن يكون معنيًّا به : وفّقنا للثَّبات على ما ارتضيته ووفّقت له من أنعمت عليه من عبادك ، من قولٍ وعملٍ ، وذلك هو الصّراط المستقيم ؛ لأنَّ من وفّق لما وفق له من أنعم اللّه عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين ، فقد وفق للإسلام ، وتصديق الرّسل ، والتّمسّك بالكتاب ، والعمل بما أمره اللّه به ، والانزجار عمّا زجره عنه ، واتّباع منهاج النّبيّ ﷺ ، ومنهاج الخلفاء الأربعة ، وكلّ عبدٍ صالحٍ ، وكلّ ذلك من الصّراط المستقيم .

❁ ❁ ❁

(١) « تفسير الطبري » (١/ ١٧١) .

٣١ ـ الدين الواصب : هو لا إله إلا الله

قيل المراد شهادة أن لا إله إلا الله ، والدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۞ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل : ٥١ ـ ٥٢] .

﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ قال عكرمة : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقامة الحدود ، والفرائض .

قال أبو صالح دكوان بن عبدالله ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ قال : لا إله إلا الله .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ... ﴾ .

سبب نزولها : أن رجلاً من المسلمين دعا الله في صلاته ، ودعا الرحمن ، فقال رجل من المشركين : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًّا واحدًا ، فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

فهاتين الكلمتين مجتمعتين (الدين الواصب) تدلُّ على شهادة أن لا إله إلا الله وهو الإخلاص والتوحيد الدائم وهذا هو حق الله على عباده ومما يثبت هذا المعنى تفسير عكرمة ومجاهد لها بذلك ومعنى سبب النزول المذكور .

وفي معنى « وَاصِبًا » أربعة أقوال . أحدها : دائمًا ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة

قال البغوي : ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ ﴾ الطاعة والإخلاص ﴿ وَاصِبًا ﴾ دائمًا ثابتًا .

معناه : ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلاك ، غير الله عز وجل ، فإن الطاعة تدوم له ولا تنقطع .

قال الطبري : عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ قال : الإخلاص .

وعن ابن جريج ، عن مجاهد ، قال : الدين : الإخلاص .

وقوله ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره : أفغير الله أيها الناس تتقون ، أي ترهبون وتحذرون أن يسلبكم نعمة الله عليكم بإخلاصكم العبادة لربكم ، وإفرادكم الطاعة له ، وما لكم نافع سواه .

قال السعدي : ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ أي : الدين والعبادة والذل في جميع الأوقات لله وحده على الخلق أن يخلصوه لله وينصبغوا بعبوديته . ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ من أهل الأرض أو أهل السماوات فإنهم لا يملكون لكم ضرًّا ولا نفعًا .



٣٢ ـ من الباقيات الصالحات وأعظمها : لا إله إلا الله

بل هي أعظمها ، والدليل قوله تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٦] .

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد : هي قول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وقد روينا أن النبي ﷺ قال : « **أفضلُ الكَلامِ أربع كلمات : سُبحانَ الله ، والحَمْدُ لله ، ولا إلهَ إلا الله ، واللهُ أكبَرُ** »[(١)] .

قال ابن كثير : وقال عطاء بن أبي رباح ، وسعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه عن : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ : ما هي ؟ فقال : هي لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال مجاهد : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الحسن وقتادة في قوله : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ قال : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، والحمد لله ، وسبحان الله ، هن الباقيات الصالحات .

ولاشك أن « الباقيات الصالحات » تشمل جميع الأعمال الصالحة أيضًا ، كما قرره الشيخ محمد ابن عثيمين بقوله : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ هي الأعمال

(١) أحمد (١٦٤١٢) ، وإسناده صحيح .

الصالحة من أقوال وأفعال ، ومنها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ومنها الصدقات ، وغير ذلك ، هذه هي الباقيات الصالحات .

فاستكثر أيها المسلم من الأعمال الصالحة التي تقربك من الله عز وجل وترضيه عنك وخصوصًا ترديد وتكرار : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والإكثار منها

فقد صحَّ عن النبي عليه الصلاة والسلام : « **أحبُّ الكلام إلى الله : سُبحانَ الله ، والحَمْدُ لله ، ولا إلهَ إلا الله ، واللهُ أكبَرُ** »[١] .

وعمومًا ينبغي لنا الحرص على الأذكار المأثورة في الكتاب والسنَّة ، فإن أفضل الأعمال بعد الفرائض في الجملة هو ذكر الله عز وجل ، كما نصَّ على ذلك أهل العلم .



(١) مسلم (٢١٣٧) ، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه .

٣٣ ـ كلمة الشهادة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله

والدليل قوله عز وجل : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وتطلق « الشهادة » على كلمة التوحيد وهي ولنا : لا إله إلا الله وتسمى عبارة « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » بالشهادتين ، ومعناهما هنا متفرع عن مجموع (الإخبار والإقرار) ، فإن معنى الشهادة هنا هو الإعلام والبيان لأمر قد عُلِم .

والإقرار : الاعتراف به ، وقد نصَّ ابن الأنباري على أن المعنى هو : اعلم أن لا إله إلا الله . وأبيِّن أن لا إله إلا الله ، وأعلم وأبيّن أن محمدا مبلِّغ للأخبار عن الله عزَّ وجلَّ .

وسُمِّي النطق بالشهادتين بالتشهد وهو صيغة (تفعل) من الشهادة .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أُمِرْتُ أَن أُقاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لا إِلهَ إلا الله وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، ويُقِيمُوا الصَّلاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ ، فَإِذا فَعَلوا ذلكَ ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهم إلا بحَقِّ الإِسلامِ ، وحِسابُهُمْ عَلى اللهِ** »[(١)] مُتفقٌ عليه .

وقال النبي ﷺ : « **ادْعُهُمْ إلى أَنْ يَشْهدوا أَنْ لا إلهَ إلا الله ، وأني رَسُولُ الله ، فإنْ هُمْ أطَاعُوك لذلكَ ، فَأعْلِمْهُمْ أنَّ الله افْتَرَضَ عَليهم خمسَ صَلواتٍ في اليَوْم واللَّيلة ، فإنْ هُم أطَاعُوكَ لذلكَ ، فأعْلِمْهُم أنَّ الله افْترضَ مِنْهُم زَكاة في أموالهم تُؤخَذُ مِنْ أغنيائهم فتردُّ في فُقرائهم** »[(٢)] .

---

(١) البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢٢) ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) البخاري (١٣٩٥) وفي أبواب وكتب أخرى ، ومسلم (١٩) ، من حديث عبد الله بن عباس .

وقال الخطابي : « وكان بدء الإيمان كلمة الشهادة وأقام رسول الله بضع عشرة سنة يدعو الناس إليها ويسمي من أجابه إلى ذلك مؤمنًا »[١] .

وقال الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب : فدليل الشهادة قوله تعالى ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وقال العلامة ابن القيِّم رحمه الله تعالى[٢] : والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفًا لمعناها وحقيقته نفيًا وإثباتًا ، متصفًا بموجبها قائمًا قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته ، فهذه الكلمة من هذا الشاهد أصلها ثابت راسخ في قلبه ، وفروعها متصلة في السماء ، وهي مخرجة لثمرتها كل وقت .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « ودين الإسلام مبني على أصلين وهما : تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله »[٣] .

وقال ابن القيِّم : « أصل عقد التوحيد وإثباته شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم »[٤] .

وهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه فإن أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر هو الإيمان بالوحدانية والرسالة وهو شهادة أن لا إله إلا الله

---

(١) « أعلام الحديث » (١/ ١٤٢) .
(٢) « إعلام الموقعين » (٢/ ٣٠٠) .
(٣) « مجموع الفتاوى » (١/ ٣١٠) .
(٤) « شفاء العليل » ص(١٨٨) .

وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، واعلم أنه لايكون من شهد أن لا إله إلا الله مؤمنًا حتى يشهد أن محمداً رسول الله مع التزامه فيها جميع الشروط المذكورة للا إله إلا الله مع أدلتها في الكتاب والسنة وهي : علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقك : مع محبة وانقيادٍ والقبول لها ، وجعلت الشهادتين ركنًا واحدًا وهو الركن الأول من أركان الإسلام ولم تجعل شهادة أن لا إله إلا الله ركنـًا وشهادة أن محمداً رسول الله ركنًا ثانيًا لأن هاتين الشهادتين أساس صحة الأعمال وقبولها إذ لا يقبل العمل ولايكون صحيحًا إلا بأمرين :

١ـ الإخلاص لله عز وجل

٢ـ المتابعة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ و شهادته سبحانه هي أعظم شهادة في الوجود قال سبحانه ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ ، وشهد سبحانه على أجل مشهود عليه ، وهو ما شهد به تعالى ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ ﴾ يستحق العبادة إِلَّا هُوَ جل وعلا ، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ شهدوا بأنه لا إله إلا هو كما شهد الله لنفسه المقدسة بذلك ، ﴿ وَأُوْلُواْ ﴾ أي أصحاب ﴿ ٱلْعِلْمِ ﴾ شهدوا بذلك أيضًا ، فجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة ، وهذا فيه أعظم حاث على طلب العلم .

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي[١] رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له ، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم ، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده ، وأنه لا إله إلا هو ، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم ، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد ، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه ، ولا يدفع النقم إلا هو ، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم ، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك ، وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدها بإخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله ، وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصًا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد ، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه ، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به .

وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه ، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين ، بمنزلة المشاهدة للبصر ، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم .

---

(١) « تفسير السعدي » ص(١٢٤) .

وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة ، منها : أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس .

ومنها : أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته ، وكفى بذلك فضلاً .

ومنها : أنه جعلهم أولي العلم ، فأضافهم إلى العلم ، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته .

ومنها : أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس ، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به ، فيكونون هم السبب في ذلك ، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ومنها : أن إشهاده تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه ، ولما قرر توحيده قرر عدله ، فقال : ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي : لم يزل متصفا بالقسط في أفعاله وتدبيره بين عباده ، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه ، وفيما خلقه وقدره ، ثم أعاد تقرير توحيده فقال ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة النقلية والأدلة العقلية ، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس ، فأما الأدلة النقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله ، من الأمر به وتقريره ، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم ، وذم الشرك وأهله ، فهو من الأدلة النقلية على ذلك ، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه ، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأمور ، فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها .

فمن أعظمها : الاعتراف بربوبية الله ، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه . ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره انفراده بالنعم ودفع النقم ، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله ، وأنه ما من نقمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها وإن أحدا من الخلق لا يملك لنفسه ـ فضلًا عن غيره ـ جلب نعمة ولا دفع نقمة ، تيقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار ، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جدا ، ومن الأدلة العقلية أيضا على ذلك : ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه ، بأنها لا تملك نفعا ولا ضرا ، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها ، وسلبها الأسماع والأبصار ، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئا ، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص ، وما أخبر به عن نفسه العظيمة من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة ، والقدرة والقهر ، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية .

فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله ، والمجد كله ، والحمد كله ، والقدرة كلها ، والكبرياء كلها ، لا بالمخلوقات المدبرات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون ، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه ، من الإكرام لأهل التوحيد ، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك ، وما ذاك إلا لأن التوحيد

جعله الله موصلًا إلى كل خير دافعًا لكل شر ديني ودنيوي ، وجعل الشرك به والكفر سببا للعقوبات الدينية والدنيوية .

ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين ، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم ، قال عقب كل قصة : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي : لعبرة يعتبر بها المعتبرون فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة ، وتركه هو الموجب للهلاك ، فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقلية الدالة على هذا الأصل العظيم ، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى من حي عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينة ، فله الحمد والشكر والثناء .



الفهرس

مقدمة المؤلف ٥
معنى لا إله إلا الله ٩
أركان لا إله إلا الله ١٣
شروط لا إله إلا الله ١٤
بعض فضائل لا إله إلا الله في السنة النبوية ١٥

فتح الرحمن بأوصاف وأسماء لا إله إلا الله في القرآن

١ ـ الحنيفية هي لا إله إلا الله ٢٢
٢ ـ العروة الوثقى كلمة التوحيد لا إله إلا الله ٣٠
٣ ـ كلمة التقوى لا إله إلا الله وهي رأس كل تقوى ٣٦
٤ ـ لا إله إلا الله هي نعمة الله ظاهرة وباطنة ٤٠
٥ ـ الكلمة الطيبة : لا إله إلا الله فلا أطيب منها في الكلمات ٤٢
٦ ـ القول الثابت : شهادة أن لا إله وأن محمدًا رسول الله ٤٧
٧ ـ دعوة الحق هي لا إله إلا الله ٥٠
٨ ـ العهد لا إله إلا الله ٥٣
٩ ـ القول الصواب : لا إله إلا الله ، بل هي منتهى الصواب ٥٧
١٠ ـ كلمة العدل لا إله إلا الله ٥٨
١١ ـ القول السديد لا إله إلا الله ٦٢
١٢ ـ الصدق لا إله إلا الله هي أصدق الكلام ٦٥

١٣ ـ كلمة الحق : لا إله إلا الله ٧٠
١٤ ـ الحسنة : لا إله إلا الله ٧٥
١٥ ـ الكلمة الباقية هي لا إله إلا الله ٧٩
١٦ ـ الحسنى هي لا إله إلا الله ٨٣
١٧ ـ كلمة الله العليا : لا إله إلا الله ٨٦
١٨ ـ الطيب من القول هي لا إله إلا الله ٩٠
١٩ ـ المثل الأعلى لا إله إلا الله ٩٢
٢٠ ـ كلمة السواء لا إله إلا الله ٩٧
٢١ ـ كلمة الاستقامة لا إله إلا الله ١٠١
٢٢ ـ الكلم الطيب لا إله إلا الله ١٠٤
٢٣ ـ الدين الخالص لا إله إلا الله ١٠٦
٢٤ ـ الزكاة والمراد بمن تزكى في الآية قول لا إله إلا الله ١١٣
٢٥ ـ القول المرضيّ لا إله إلا الله ١١٧
٢٦ ـ الإحسان لا إله إلا الله ١١٩
٢٧ ـ القسط لا إله إلا الله ١٢٥
٢٨ ـ التي هي أقوم هي لا إله إلا الله ١٢٦
٢٩ ـ القول الأحسن هو لا إله إلا الله ١٢٧
٣٠ ـ الصراط المستقيم : لا إله إلا الله ١٢٩
٣١ ـ الدين الواصب هو لا إله إلا الله ١٣١
٣٢ ـ من الباقيات الصالحات وأعظمها لا إله إلا الله ١٣٣
٣٣ ـ كلمة الشهادة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ١٣٥
الفهرس ١٤٣